

تأليف: عبدالله حسن الفارسي

Abdullah Hassan Ahmed… dante_uae@windowslive.com

سأحكي لكم حكايتي... التي مرت على مراحل عنيفة وقوية... عشتُ فيها الضياع والوحدة والألم والحب والعطف والعذاب والظلال... سأحكي لكم حكاية آمل أن تكون عبرة للجميع... وخصوصاً للظالمين... سأحكيها لكم بين صفحات مذكراتي القديمة التي غطاها غبار الطغيان... حدثت هذه الحكاية بعد ثمانية عشر سنة من وفاة والدتي التي ماتت بعد ولادتي أنا وأختي التوأم سارة بيومين فقط...

الجزء الأول:-

إذا غرقتَ في بحر أحزانك وأوهامك، تذكر أن حبل السعادة موجودٌ دائماً لينقذك...

الفصل الأول:-

لقد كنا أنا وأختي في المستشفى ننتظر بقلق شديد خروج أي طبيب أو ممرضة لتخبرنا ما الذي حدث لأبي الذي مرض مرضاً لم نعرفه إلا في الآونة الأخيرة، لقد خرجتُ من كُليتي إلى المستشفى بسرعة، لم أكن أريد أن أكون بعيداً عنه... وأخيراً خرج الأطباء من الغرفة.

قلت بقلق: [ما الأمر؟! هل والدي بخير؟!]

قال لي: [إنه يريدكما في الغرفة... يؤسفني أن أقول بأنه لن يعيش طويلاً]

ركضت أختي بسرعة إلى والدي ولحقتها محاولاً أن لا أصدق كلام الطبيب.

قال أبي: [بني... بدر... حافظ على أختك... أحمها...]

بكت سارة بمرارة وهي تمسك بيده، قلتُ له: [أبي... أنت ستعيش... ستعيش لتربينا... لا يمكن أن تتركنا ونحن في هذا السن...!!]

قال لي: [للأسف يا بني... هذا أجلي... وأنا سعيدٌ به...]

لقد أهتزت مشاعري وكنتُ على وشك البكاء، حين قال: [اللهم أحمهم من الظالمين... اللهم أحمهم من الظالمين... اللهم أحمهم من الظالمين]

وكانت سارة تبكي بألم ومعاناة، ولكنه كان ينظر إلي... لأنني الرجل... لأنني أخاها الوحيد... لأنني سأكون ولياً عليها بعده.

ثم قال لي: [لقد كتبت كل ثروتي بأسمك يا بدر... إنها أمانة في رقبتك... وهي التي ستؤمن مستقبلكما...]

ثم ختم كلامه قبل أن تخرج روحه: [الملايين الخمس... الملايين الخمس يا بدر... إنها... إنها...]

وخرج من الدنيا... خرج منها وكأنه رمى كل شيء على ظهري لأتحمل أعباء الأيام القاسية... ومضت الأيام حتى تعودنا على الحال... إذ كنا نملك ثروة هائلة... وكأنها لن تنتهي أبداً، خمسة ملايين في البنك، ومحلات والدي ومطاعمه، ومنزلنا الذي يبدو للجميع بأنه قصر كبير، لا يعيش فيه سوى فتى وفتاة في الثامنة عشر من عمرهما.

لقد كنتُ أنا أذهب إلى الكلية صباحاً... وهي مساءً حتى نتأقلم مع بعضنا، وكل منا يحب الآخر حتى النخاع، لقد كنتُ وسيماً جداً وأرتدي نظارة طبية ذو فريم أسود سميك، وكانت أختي تحب القرآن حباً جما... وكانت تمنعني من الأستماع للأغاني... وهذا حدث بعد أن توفي والدي، وتعرفت على صديقة إيمانها قوي جداً.

وفي العصر، وبعد أن ذهبت سارة إلى الكلية، خرجت من المنزل لألتقي بأصدقائي –خالد وعمار- ركبنا سيارتي واتجهنا مباشرة إلى المرقص، وتلك كانت أول مرة في حياتي أذهب فيها إلى مرقص وذلك لأن أصدقائي كانوا من رفقاء السوء.

وفي طريقنا إلى المرقص، قال عمار: [لا داعي للقلق... فبدر يملك النقود للدخول، أليس كذلك؟!]

قلت لهما: [لا داعي للقلق... أنا سأتكفل بكل شيء... أشعل سيجارتي يا خالد]

ولأن النقود كانت تنصب علي وكأنها أمطار، لم أكن أعرف ما الذي أفعل بها، لذا أدعوهما إلى العشاء في مطاعم فاخرة، وأشتري سيارة ذو طراز حديث جداً، والشيء الذي أفعله بالمال يومياً هو حرقها بشرائي حوالي خمسة علب سيجارة يومياً لأننا كنا ندخن بشراهة...

وصلنا إلى المرقص أخيراً، ونزلنا من سيارتي ودخلنا فيها، وبدأنا بالرقص مع الأجنبيات الجذابات ذي جمال أصطناعي لا يقاوم... وبقينا هناك حتى الليل.

وأنا أجلس على طاولة البائعة الجميلة التي تبيع المشروبات الغريبة والتي هي في الأساس مشروبات كحولية... تجعل الإنسان في حالة يرثى لها.

قال عمار: [بدر... ما رأيك أن تشرب معي ذاك الشراب؟]

قلتُ له: [إذا تريدني أن أشتريها لك... فسأشتريها]

ثم جلس خالد بقربي: [خذ سيجارة... ودعنا نستمتع بوقتنا]

ثم وجه كلامه للبائعة: [أحضري ثلاثة زجاجات يا حلوتي]

أحضرت طلبه ووضعتها على الطاولة، ثم شرب عمار وخالد.

قال لي خالد: [ما بك يا بدر؟... هيا أشرب وأستمتع بوقتك]

قلت له: [أنا لا أشرب هذه الأشياء...]

قال عمار: [دعه يا خالد فهو ليس إلا طفل لم يبلغ بعد...]

قلتُ لهما: [أنا رجل... ولا داعي لتلك المراوغة السخيفة]

خالد: [لما لا تريد الاستمتاع بالحياة يا بدر؟ تمتع بحياتك يا عزيزي]

فاشلان... لقد تخليا عن الدراسة منذ زمن بعيد، وأنا الوحيد الذي يكمل دراسته الآن.

قال خالد لي بثقة: [أنت جبان... تملك تلك النقود ولا تعرف أنها تجعلك سعيداً؟!]

لقد أخذ جرعة كبيرة من ذاك المشروب لقد بدأ بفقدان وعيه.

قال عمار: [هيا يا بطل لما لا تشرب؟ ستشعر بأنك كالفراشة التي تطير في السماء]

ثم أتت مجموعة من الفتيات وكن في حالة كحالة خالد وعمار، ولم تمضي سوى دقائق معدودة حتى مدتُ يدي إلى الزجاجة الكبيرة المشبعة بالثلج، وبلعت أكبر كمية ممكنة من ذاك الشراب ذو الطعم اللذيذ والرائحة الكريهة... والعجيب في الأمر هو أن طعم الشراب كان لذيذاً لدرجة لا تصدق، إلا أن رائحتها كريهة لا تعبر عن طعمه.

وهنا كانت بدايتي مع الإدمان... بالخمر والمراقص.

وفي الصباح الباكر، كانت أختي سارة تحمل ساعة المنبه بيدها وهي توقظني من النوم، من أجل أن أصلي صلاة الصبح، وكنت أشعر بألم لا يقاوم وصداع لا يوصف، ولكنني لم أكن أريد أن أظلمها معي، ولا أريدها أن تعرف أي شيء عن تلك الأشياء، لقد كنتُ أشعر بأنني أظلمها.

قالت لي بعد أن صليت الفجر: [سوف تجتمع كل الكليات الموجودة في الإمارات في كليتنا، إنها مجرد ندوى، وسيشرفنا الشيخ نهيان...]

قلت لها: [أوه، شيء رائع... سنلتقي هناك إذن]

لقد كنا نعيش في العين، التي تضمها إمارة أبوظبي، وكنا أنا وسارة في السنة التمهيدية –السنة الأولى- التي يركزون فيها على اللغة الانجليزية.

قالت لي: [نم أنت الآن... وسوف أوقظك في الساعة التاسعة]

قلت لها: [حسناً...]

كم أنا سيء! لماذا أفعل بنفسي هذا؟!... بصراحة لم أكن أملك الجواب أبداً، ووضعت رأسي على السرير ولم أنم سوى دقيقتين، حين قالت أختي: [بدر... هيا أنهض إنها التاسعة... عليك تجهيز نفسك سنغادر الآن]

لم أعارضها، بل تجهزت وغسلت وجهي جيداً، ومن ثم أخذتها إلى كليتها بسيارتي وليست بسيارتها، وعندما وصلت هناك ونزلت من السيارة إلى الكلية، أخرجت السيجارة بسرعة وصرت أدخن وكأنني لم أدخن منذ زمن بعيد... وأخيراً زال الألم والصداع بعد أن أدخلت الملايين من القاذورات في رئتيي وأخرجتها لتشعرني بذاك الشعور المريح الرائع.

أوقفت سيارتي في مواقف السيارات الخاص بالكلية ونزلت من السيارة لأدخلها، ووجدت أن معلمتي كانت تنتظرني، وبعض الطلاب كانوا هناك، ولأن هذا اليوم ليس الحضور فيه إجبارياً، لم يأتي سوى القليل، أثنى عشر طالباً.

قالت المعلمة لي: [جيد أنك أتيت يا بدر... إن عددنا الآن كافياً]

قلت لها: [لا يمكنني أن أفوت على نفسي هذا اليوم يا آنسة]

ووصلت الحافلة التي ستقودنا إلى الكلية التي تدرس فيها سارة.

ولم أكن وقتها أملك أي صديق في الكلية فجلست وحيداً على طاولة واحدة، وكنت أفكر بالذي حدث في ليلة أمس، لقد كان فضيعاً.

ولم تمضي سوى ساعة حتى وصل إلى الصف الذي نحن فيه طلاب لكلية التي تقع في إمارة رأس الخيمة، وجلس الجميع إلا طالب واحد لقد

بدا عليه اللطف، لقد كان طويلاً ونحيل الجسد، وجلس بجنبي ولم يكن يريد التحدث، وكنا جميعاً نرتدي الكندورة والغترة، وبدأ الأستاذ يشرح لنا الندوة وماذا سنفعل اليوم... لقد كانت عن الكتابة.

ولم تمضي سوى لحظات حتى قدم لنا المحاضر أوراقاً لنكتب فيها قصة معينة، كل طالب مع شريكه، وكان هو شريكي.

قال الفتى: [أكتبها بنفسك... لا أريد مساعدتك]

رأيت التعقيد في عينيه، فسألته: [لماذا لا تريد مساعدتي؟!]

قال لي بعد تفكير بسيط: [لا أعلم... لا أعلم... حسناً سأساعدك]

قلتُ له: [يا لك من غريب!]

قال لي: [أنا محمد... وأنت؟]

[بدر... أسمي بدر]

[أنا من رأس الخيمة... وأعتقد أنك من كلية العين يا بدر... أليس كذلك؟]

[أجل... والآن عن أي قصة سنكتب يا محمد؟]

[ما رأيك أن نتخيل؟... مجرد أن نفكر بشيء خطير]

[لا داعي لذلك يا محمد... سنكتب عن شرطي المرور]

[كما تشاء يا بدر... ولكن عليك أن تحترس من قواعد اللغة الانجليزية]

وبعد ساعة، خرجنا من الحصة، ولكني أرتحت لمحمد كما أنه سعيد معي، فذهبنا إلى قاعة الكلية، ومن ثم إلى المطعم للغداء، وهنا... تعرفت على محمد أكثر وأكثر... فرغب بصداقتي، ورغبت بصداقته، وأخذت بريده الالكتروني ورقم هاتفه.

قال محمد لي ونحن على طاولة الطعام، وكنا لوحدنا أيضاً: [أنا أعيش مع أختيي وجدتي في منزل بسيط ومتواضع]

[وأين هما والداك؟]

[لقد توفيا منذ زمن بعيد، عندما كنت في الثامنة... هذا ما قالته لي جدتي]

[أنا آسف... رحمهم الله جميعاً]

[لقد توفيا في حادثة سير عندما كانا يرجعان من المستشفى ومعهما المولود الجديد، ولكنهم ماتوا جميعاً في ذاك الحادث]

[يا إلهي... كم هذا مخيف ومحزن!]

[لقد حزنت كثيراً عندما أخبرتني جدتي بالحقيقة]

ثم أضاف: [وماذا عنك يا بدر؟]

قلت له: [حالتك ليست مختلفة عن حالتي... لقد توفيت والدتي بعد ولادتي، وتوفي والدي منذ شهرين تقريباً]

[يرحمهم الله ويغفر لهم ذنوبهم جميعاً]

[أنا الآن أعيش مع شقيقتي في بيت واحد، وهذا البيت كبير جداً]

[الحمد الله على كل حال...]

ثم قلت له بابتسامة: [ما هي هواياتك يا محمد؟!]

قال لي: [بصراحة يا بدر... القائمة تطول]

[وكيف ذلك؟!]

[إن هواياتي كثيرة جداً... فأنا أحب الكاراتيه، ومشاهدة الانمي، والبرمجة والقراءة، وأحياناً معاكسة الفتيات]

ضحكتُ في آخر لحظة من كلامه وقلت له: [شيء رائع... أنت تجيد الكاراتيه إذن يا محمد]

[قلت لك أني أحب مشاهدة الأنمي منذ الصغر، فتأثرت بها كثيراً، وقررت الدخول إلى مدرسة لتعليم الكاراتيه، وهذا ما حدث... وأنا الآن أتعلم الكاراتيه منذ أربع سنوات، وأشتركت في الكثير من المسابقات، وكنت أرضى بنتيجتي... وماذا عنك؟]

قلت له بسعادة: [أحب الرسم وكرة القدم والتنس والجلوس على الكومبيوتر... وغيرها]

قال لي: [أنا أكره كرة القدم... إنها مملة]

قلت له: [أنا أكره القراءة... أنا أراها مضيعة للوقت]

ضحكنا ضحكة مرحة وقد شعرت تجاهه براحة ليست عادية، لم أشعر بتلك الراحة من قبل، يا له من فتى!

وفي عطلة نهاية الأسبوع، جلست على الكومبيوتر، وفتحت المسنجر لأتحدث مع محمد.

بدأت أنا بالأرسال: [السلام عليكم]

[وعليكم السلام، كيف حالك يا بدر؟]

[بخير والحمد الله... وأنت كيف صحتك؟]

[الحمد الله... أريد أن أقول لك شيئاً سعيداً بالنسبة لي...]

[ما هو يا محمد؟]

[سأزورك غداً بعد صلاة الجمعة]

لقد شعرت بسعادة لا توصف عندما قرأت رسالته، فأرسلت له بدون تردد: [هل أنت جاد؟! هل ستزورني حقاً؟!]

[هل أنت سعيد بذلك؟!]

[كيف لا أكون سعيداً؟! ولكن شقيقتي...]

[لا عليك يا بدر... في الحقيقة أنا أخبرت أختيي عنك وعن أختك، وهن يردن التعرف على شقيقتك يا صديقي]

ثم صرخت لأنادي شقيقتي: [سارة... تعالي بسرعة!!]

أتت سارة إلى غرفتي وهي تقول: [ما الأمر يا بدر؟!]

قلت لها وأنا أرسم أبتسامة على وجهي: [سيزورني صديقي محمد هو وأختاه... ما رأيك؟!]

[حقاً؟... حسناً، لكن متى؟!]

[غداً بعد صلاة الجمعة]

[جيد... أعتقد أنهم أول زوار غريبي الأوجه سيأتون إلينا... كم هذا رائع!]

كتبت لمحمد وأرسلت له: [إن شقيقتي سعيدة بزيارتكم...]

كتب محمد: [بدر... قد أصل إليك المغرب... سنبقى ساعة عندك وسنغادر]

[لن تفعل ذلك أبداً يا محمد... ستقضي معي حتى السبت، عندها بإمكانك المغادرة... ولن أقبل بأي عذر أبداً]

[ربما سأزعجك يا بدر... وقد لا ترضى جدتي]

[حاول أقناعها... أو آتي بها إلى هنا]

[إنها كبيرة في السن يا بدر... لن تقدر على التحمل...]

[ولكن... هل ستتركها لوحدها؟!!]

[كلا... الخادمة معها...]

[إذن... إلى الغد...]

وفي العصر، خرجت سارة مع صديقتها لتزور صديقتها المريضة، وأنا خرجت مع صديقي إلى الظلام والضياع، ولكن لم تكن هذه المرة كما في المرات السابقة، فلقد شربت الكثير من الكحوليات حتى فقدتُ وعيي وصرت أرقص مع الفتيات الفاسقات، ولكن هناك أموراً أخرى كانت تحدث، كان خالد وعمار يتحاوران لوحدهما ويخططان لمكيدة ما.

قال خالد لصاحبه: [إن أخت بدر جميلة... وهي وحيدة في منزل كبير]

قال عمار: [أعرف ما ترمي إليه أيها اللعين الحقير...]

[هل ترى أن اليوم هو الموعد المناسب لذلك؟!]

[لا... سنجعلها غداً... عندما يثمل تماماً... سننفذ خططتنا...]

><><><><><><><><><><><><><

الفصل الثانـي:-

قال خالد له وهو ينظر ألي وأنا ثمل: [ولكن قصرهم كبير جداً... كيف سندخله؟!]

قال عمار: [سنكون هناك في المساء... بعد أن يثمل بدر... وعندها سنفكر كيف سندخل]

[ربما تكون الفتاة قد خرجت...]

[سنجرب... وسنرى ما سيحصل...]

قال خالد بتوتر: [أنا خائف يا عمار... أخاف أن يشاهدنا أحد...]

[من سيشاهدنا؟! إنها فتاة وحيدة بلا حماية... ولن تخبر أحد بما سيحصل لعدم انتشار الفضيحة...]

[حسناً... لا بد لنا من الشجاعة...]

عمار: [ولن تتمكن من معرفتنا... هذا هو المهم...]

[ما الذي تقصده؟!]

[سنتلثم جيداً... فإن عرفتنا ستكون مصيبة... لأنها بالتأكيد ستخبر بدر]

[وماذا لو عرفتنا يا عمار؟!]

[عندها... لا بد لنا من قتلها]

[ماذا؟!]

[أجل... وإلا ستكون العواقب وخيمة]

[يا لك من حقير... وملعون]

ومضت الساعات حتى منتصف الليل، وقدتُ السيارة وأنا في حالة يرثى لها، وسيجارة معلقة بين شفتي، ولولا خلو الشوارع، لاصطدمت لأكثر من عشرين سيارة الآن، وعندما وصلت إلى القرية، نزل خالد وعمار عند البقالة القديمة، ورجعت أنا إلى المنزل.

دخلتُ البيت وأنا بالكاد محافظ على توازني، وكنتُ أبدو كالأحمق تماماً، دخلتُ غرفتي وأغلقتُ الباب خلفي برقة، ومن ثم جلستُ على السرير، ومن ثم نمت نوماً عميقاً جداً من شدة التعب والأرهاق.

دخلتُ في حلم لم أتوقعه أبداً، إنه والدي الذي يجلس على الأريكة وهو يقرأ الجريدة، وأختي تقرأ كتاباً بقربه، وأنا كنتُ أشاهد التلفاز، ولكني كنتُ وقتها في العاشرة من عمري، عرفتُ ذلك عندما شاهدتُ وجهي اللطيف، ولم أكن أرتدي النظارة عندها، لقد كان حلماً جميلاً بالنسبة لي.

قال أبي لي: [بدر... أبتعد عن التلفاز قليلاً ستأذي عينيك]

قلتُ له: [كما تشاء يا أبي... ولكن متى ستشتري لي الدراجة التي وعدتني بها؟!]

قال لي بابتسامته الحنونة: [عندما تنتهي من الامتحانات... ونجحت في جميع المواد]

قالت أختي: [أبي... أنا أريد أن أصبح طبيبة... ما رأيك بذلك؟!]

قال لها ولم تتغير ملامحه: [حلمٌ جميل يا ابنتي... ولكنه صعب التحقيق]

قالت له: [ولكنك ستساعدني أليس كذلك؟!]

ضحك أبي في وجهها وقال: [بالتأكيد يا عزيزتي... سأكون بجانبك]

شعرتُ بالغيرة عندها فقلت: [أبي أريد أن أصبح مثلك... رجلاً كاملاً]

قال لي: [إن شاء الله... وما هي طموحك يا بني؟!]

قلتُ له بسعادة: [أن أكون رجل أعمال كبير ومعروف مثلك...]

قال لي: [حلمٌ رائع يا بدر...]

وبعد لحظات، فتحت عيني لأجد نفسي على سريري والساعة تشير إلى الثامنة، ولا يزال رأسي يؤلمني وشعرتُ برغبة قوية في التدخين، ولكني تعجبت... كيف لي أن أستيقظ في هذا الوقت المبكر وأنا نمت في ساعة متأخرة؟! وحاولتُ النهوض من السرير ولكنني شعرتُ بثقل غريب في رأسي، وحاولتُ النوم من الجديد، ولم تكن سوى دقائق معدودة حتى أستغرقتُ في نوم عميق... أعمق عن الذي قبله، ورجعت ذاكرتي إلى المستشفى وأنا أرى أختي تبكي على أبي الذي كان ينظر إلي وهو يقول... أحمي أختك يا بدر... أحمي أختك يا بدر.

فتحتُ عيناي لأرى سارة توقظني على أذان صلاة الجمعة –الأذان الأول- فنهضتُ من فوري حتى أجعل أختي سارة تعتقد أني صحوت بالكامل، وأخذتُ ملابسي ومن ثم إلى الحمام لآخذ أستحمام ساخن جداً حتى أضمن أني صحوت جيداً ولا يبدو علي النوم.

وسرتُ أسأل نفسي بقهر ومرارة: [لماذا أفعل كل هذا؟!... لماذا أخدع نفسي وأخدع أختي المسكينة؟!... لماذا أشرب وأدخن؟!... ما السبب الذي يجعلني أفعل كل هذا؟!... ما السبب؟!]

خرجتُ من الحمام وما زلتُ غاضباً من نفسي على ما أفعله بنفسي، ولبستُ ثيابي النظيفة التي كوتها أختي وغسلتها بنفسها، وطلبتُ منها عدة مرات بأن أحضر خادمة لتساعدها، لا... ليست خادمة فقط... بل عشرون خادمة تحت تصرفها وأوامرها.

تعطرتُ بالطيب وأخذتُ غترتي وصرت أرتبها وكأني خبير في ذلك، مع أني تدربتُ عليها كثيراً جداً حتى أصبحتُ أتقنها وأنا مغمض العينين، وبعدها خرجتُ من المنزل إلى السيارة ولم تمضي سوى دقائق حتى وصلتُ إلى المسجد، وبقيتُ هناك حتى جاء الخطيب.

وبعد صلاة الجمعة، جلستُ مع أختي على طاولة الطعام نأكل الغداء الذي أعدته بنفسها.

قلتُ لها: [سارة... ما رأيكِ أن نأتي بخادمة لتساعدكِ في أعمال المنزل؟]

قالت لي: [لا داعي... فأنا أحب العمل لوحدي...]

قلتُ لها: [أنتِ لا تزالين تعتقدين بأن الأمر الذي حدث منذ سنة ونصف سوف يتكرر]

قالت لي: [بدر... لقد وعدتني بعدم فتح هذا الموضوع من جديد]

قلتُ لها: [أعدكِ يا أختي أن لا يتكرر ما حدث... ثقي بأخيكِ]

قالت لي بعناد: [لا تحاول... قلتُ لك لا أريد يعني لا أريد... ألا تفهم؟!]

قلتُ لها بحزن: [ما زلتي لا تثقين بي إذن يا سارة...]

قالت: [أجل... لا أثق بك... وأغلق هذا الموضوع... ولا تحاول أن تفتحه من جديد]

وفي العصر، اتصل بي صديقي الذي أحببته وكأنه أخي، وقال لي بأنه آتٍ إلينا... إلي أنا وأختي التي طارت من الفرحة وطلبت مني عدم

شراء أي شيء لأنها هي من ستطبخ طعام العشاء، ولكنها كانت تغيضني وتجعلني كالأحمق بسبب تصرفها الغريب... لقد ورثنا من أبانا ملايين الدراهم التي تجعلنا نسبح في حوض مليء بالذهب، ولا تزال كعادتها لا تحب أن أشتري من المطاعم.

وذهبتُ إلى صديقي –خالد وعمار- وذهبنا إلى المرقص بسرعة، وكنتُ أجهل تخطيطهم الذي سينفذانه اليوم، وكان على خالد التوتر قليلاً، وكان يعطيني السيجارة كلما أنتهيت من واحدة، وصرنا نتحدث حتى وصلنا إلى الهلاك البطيء والفسق.

جلستُ على الطاولة وطلبت من النادلة الجميلة ذو الجسد الجذاب ثلاث زجاجات.

قال عمار الذي كان يجلس بقربي: [لماذا تدرس في الكلية يا بدر؟!]

قلتُ له: [لأكون نفسي... وأعزز من شخصيتي]

قال خالد لي: [تملك كل تلك الملايين من أجل هذا الشيء السخيف؟!]

قلتُ لهما: [أنتما جاهلان ولا تعلمان أي شيء... كان أبي يريد أن يراني رجلاً رائعاً له مكانته في المجتمع]

قال عمار: [لقد توفي والدك الآن... أنصحك أن تتخلى عن دراستك الغبية هذه]

قدمت لنا النادلة الزجاجات الكبيرة المشبعة بالثلج وقلت لهما: [أسمعا... إن تحدثتما في هذا الموضوع مرةً أخرى... سأبرحكما ضرباً... هل فهمتما؟!]

لقد استمعا إلى نصيحتي بسرعة ليس خوفاً مني... بل خوفاً من تلاشي الثروة التي هي أنا... البنك المتنقل... هما في الحقيقة لم يكونوا أصدقاء بمعنى الكلمة مثل محمد الذي لا يعرف أي شيء عن تلك الملايين، لقد كانوا يصادقونني من أجل المال... نعم... المال فقط، هذا الذي كان يشغل بالهم، نقود لا نهاية لها أبداً... وبسبب ذلك كانا فاشلين ولا يملكون أية طموح، وفوق هذا كله... يعصيان والديهما من أجل تلك النقود.

أخذتُ كأسي وصرتُ أحتسي الشراب وأتجرعه بجرعات كبيرة دفعة واحدة، ولم أنتبه على خالد وعمار اللذان لم يكونا يحتسيانه حتى يكونا في كامل عقلهما، وهي ليست سوى ساعات حتى صارت الثامنة مساءً.

ثم سألني خالد وهو يعرف أنني دخلتُ في عالم السُكر: [أين مفاتيح سيارتك يا بدر؟!]

أدخلتُ يدي بجيبي وأعطيته إياه وأنا أقول له: [خذها لك... فأنا لا أريدها... مبروك عليك السيارة]

لقد سعد كِلاهما وخرجا من المرقص بسرعة الريح ليركبوا سيارتي، وإلى القصر العظيم بسرعة.

وفي أثناء الطريق سأل خالد: [وماذا بعد؟!]

عمار: [سندخل القصر... سنتصلق السور...]

[أنا خائف جداً... أخاف أن يعرفنا أحد...]

[أنت تخاف بدون أي سبب... إنها هلاوس...]

[ولكن...]

صرخ عمار في وجهه: [أخرس!!... قوي قلبك وسترى أن كل شيء سيسير كما نشتهي!!]

[أحسد هدوئك هذا!! كيف لك أن تكون في تلك الأعصاب الواثقة؟!]

قال عمار بصرامة: [يكفيك سخافة... سنصل قريباً فتأهب]

ولم تمضي سوى دقائق معدودة حتى وقفوا أمام المنزل تماماً، ونزلوا من السيارة وراقبوا المكان ومن ثم تصلقوا السور إلى داخل القصر، وكان خالد يتعرق من شدة التوتر وكانا متلثمين جيداً لكي لا يتعرفهما أحد.

سمعت سارة وهي في المطبخ صوت أحد ما يدخل إلى الصالة، فأعتقدت أنه أنا، فسعدت لذلك واتجهت إلى الصالة لتنصدم بوجود شابين متلثمين يراقبانها بنظرات مخيفة ومتوحشة، فصرخت بصوتٍ عالٍ جداً، ولحسن حظها كانت غرفتها بالقرب منها، فدخلته وأقفلت الباب وهي تبكي من شدة الخوف، وكانت دموعها تهطل بغزارة، وكانت تسمع صوتهما.

قال عمار: [أفتحي الباب وإلا سنكسره]

قال خالد: [لن نؤذيكِ يا جميلتي... فقط نريد رؤيتكِ]

كانت سارة ترتجف من شدة الخوف وكانت تبكي، وأدركت أنها نسيت هاتفها المحمول في المطبخ، وحتى لو اتصلت بي... فأنا لن آتي، وهي لم تكن تعلم ذلك.

فدعت إلى الله بصوت عالي جداً بكلمات متقطعة: [الله يا رب السموات والأرض أرحمني وأنقذني من هذه الورطة يا أرحم الراحمين... اللهم يا مالك الملك ساعدني في محنتي وخلصني من هذا الكابوس المرعب يا

الله... يا من خلقني ورزقني أنا أمتك مخلصة لك ولرسولك الكريم لا تحقق آمال الأوغاد الأشرار]

قال خالد لعمار: [لنكسر الباب...]

فأخذوا يضربون الباب ويركلونه بقوة، فخافت سارة وركضت إلى القرآن الكريم وصارت تقرأ صورة ياسين بخوف شديد جداً وثقة قوية برب العالمين.

وكُسر الباب ودخلا الشابان، وصرخت أختي بلفظ الجلالة، فشعرتُ وأنا في المرقص بهزة قوية تهز مشاعري وكياني وقلبي وعواطفي، فأغمي علي.

فتحت عيني لأجد نفسي نائماً على طاولة النادلة... رأيتُ الساعة... إنها العاشرة... فتذكرت... إن محمد آتٍ لزيارتي وأنا هنا نائم في مرقص حقير مليء بالفسق، نظرت هنا وهناك فلم أجد خالداً ولا عمار، فخرجتُ من المرقص ولم أجد سيارتي، فعرفتُ أنهما أخذاها وأنا سكران، فأخذتُ سيارة أجرة وأنتقلتُ مباشرة إلى المنزل، فتعجبتُ بوجود سيارتي هناك... من أحضرها؟! ولكن سيارة محمد لم تكن بقرب المنزل... لماذا؟!... هل رحل؟!

دخلتُ المنزل لأجد خروج محمد من الصالة، فتعجبتُ بوجوده وكان وجهه غاضباً إلى حد الجنون.

قلتُ له مرحباً: [أهلاً وسهلاً...]

وصلتُ إليه ليمسكني من قميصي ويعلقني على الجدار.

فسألني بقهر: [أين كنت كل هذا الوقت؟!]

أعتقدتُ وقتها أنه غاضب مني لأنني تأخرت: [آسف على تأخري...]

قاطعني ولم تتغير ملامحه الغاضبة: [أخبرني في الحال أين كنت؟!]

قلتُ له: [كنتُ مع أصدقائي...]

أنزلني من الجدار وأدخلني الصالة بقوة، حاولتُ الأفلات ولكن قبضته كانت أقوى بكثير.

دخلنا الصالة لأجد أختي تبكي وهي تجلس على الأريكة بين فتاتان ترتديان العباءة والشيلة وهن ينظرن إلي.

صرخت أختي في وجهي: [أين كنت؟!]

قلتُ لها: [ما الذي حدث؟!... ما الأمر؟!]

دفعني محمد بقوة على الأرض ليجعلني أتدحرج كالكرة في الملعب، وهو يصرخ: [أدخل إلى غرفة شقيقتك!!]

لم أفهم شيئاً... لما كل هذا الغضب؟!... هل لأني تأخرتُ عليهم؟!... لا أظن ذلك... والشيء الذي فاجأني هو كيف لهذا الجسد الهزيل أن يحمل كل تلك القوة في داخله... إنه قوي حقاً!!

وقفتُ على قدمي ومن ثم دخلتُ غرفة شقيقتي سارة لأجد شابان مربطان ووجههما مورم وهما ينزفان الدماء من فمهما... عرفتهما على الفور ودهشت: [خالد!!... وعمار!!...]

أتى إلي محمد وهو يقول: [هل تعرفهما؟!]

قلتُ له: [أجل إنهما صديقاي... ما الذي حدث؟!]

مسكني بقوة وعلقني على الجدار من جديد وبشراسة أكبر، حين قال: [أحاول قدر المستطاع أن أسيطر على أعصابي لكي لا أقتلك!! كيف لك أن تترك أختك وحدها في قصر كبير كهذا؟!]

نظرتُ إليهما حين قلتُ لمحمد: [ما الذي تعنيه؟!]

فصرخ في وجهي بقهر ممزوج بالغيض: [هذان الأثنان حاولا الأعتداء على شقيقتك أيها الساذج!!... وتسميهما أصدقاء؟!!]

أخذت أسناني تصطك بقوة وأنا أنظر إليهما، فأوقعني على الأرض وأنا مصدوم من ما سمعت، وقلبي يخفق بقوة وكأنه سينفجر.

ثم قال لي: [لقد أستغليا تركك لها بفردها في هذا القصر لـ... أستغفر الله العلي العظيم...]

وأضاف: [لولا الله ومن ثم أختي التي أحست بما سيحصل هنا... لكنت الآن في حالة مشفقة وعار لا يمكنك تحمله!!]

صار جسدي يرتجف بشدة وأنا غير قادر على الحركة أو الوقوف على قدمي... ظللتُ على هذه الحالة حتى غمضت جفناي من هول تلك الأحداث.

><><><><><><><><><><

الفصل الثالث:-

فتحت عيني لأجد نفسي على سريري الأصفر، وكان محمد يرقد على الأرض... فتذكرتُ كل شيء... كل شيء... كل تلك الذكريات الجديدة التي حلت على عقلي والتي جعلتني أشعر بنوع من الحقارة... وصرتُ أسأل نفسي... لماذا أنا حقير هكذا؟!... لماذا الحقارة تجري في عروقي وكأنها تأكل كل خلية صالحة فيني؟!... لماذا؟!... أريد أن أعرف لماذا؟!... صرت أصفع نفسي بقوة حتى تورمت خداي من الألم... ولكن لماذا أشعر بالذنب؟!... إنها نفسي... هي التي تشعرني بالذنب والندم... هي التي تجعلني أسأل نفسي تلك الأسئلة... هي التي تجعلني أكره نفسي على ما أفعله كل يوم... حقاً!! أمر غريب جداً...!!

وأين هما خالد وعمار؟! ما الذي حدث لهما...؟!

لقد أعتقدتُ وقتها أنني كنتُ أحلم لا أكثر... ولكن وجود محمد في غرفتي جعلت الحلم حقيقة... وليس وهماً.

نزلتُ من السرير فوجدتُ نفسي أرتدي الكندورة التي كنتُ ألبسها بالأمس... فتحت باب غرفتي بدون أن أوقظ محمد وذهبتُ إلى المطبخ، وكانت الساعة تدق على السادسة الآن... والشمس على وشك الشروق، وعندما عبرتُ ممرات قصري العملاق... سألتُ نفسي... كيف لتلك الفتاة أن تحتمل عزلة هذا البيت الضخم طول الليل... أو طيلة غيابي؟!... إنها شجاعة حقاً!!

دخلتُ المطبخ واتجهتُ إلى البراد وصرت أملئ كأسي بالماء البارد كالثلج، وبعدها ذهبتُ إلى الحديقة التي لم أزرها منذ شهور... إنها حديقة منزلي... لقد كانت الأزهار والأشجار التي فيها تشعرني بالراحة...

لقد أحسنت تلك الفتاة تربيتها والأعتناء بها، وجلستُ على الكرسي الموجود بجوار شجرة التوت الكبيرة، والذي كان جزءاً من هذه الحديقة، وصرت أسمع غناء العصافير وأنا أرتشف من الماء البارد... وأخذتُ أنظر إلى السماء الزرقاء ولكنها لا تزال داكنة قليلة، أنظر إليها وتمنيت الرجوع ليوم واحد فقط... لأصحح خطأي...

فجأة... سمعتُ صوتاً يقترب مني، صوت طقطقة على الأرض... نظرتُ إلى الخلف... لأرى فتاة صغيرة ترتدي الشيلة وبجامة خضراء تحمل عصاة طويلة... فعرفتُ أنها شقيقة محمد... لم أرد التحديق بها كما تفعل هي... فرجع بصري إلى السماء التي تغير لونها إلى الأصفرار.

قالت لي: [لقد نامت بصعوبة... تلك المسكينة لم تحتمل سقوطك على الأرض وإنهيارك]

تقدمت نحوي وجلست على الكرسي الذي كان بجواري بعد أن لمسته العصاة... لقد كانت فتاة صغيرة... ولم تكن كبيرة كثيراً...

قالت بصوتها الناعم وهي تنظر إلى الأمام: [كان عليك أن لا تتخلى عنها وهي في تلك الأزمة... لقد شعرتُ بها وهي تصرخ... في غرفتها]

ثم أضافت: [أنا فتاة عمياء... فقدتُ البصر والشم... لا يمكنني أن أشم أي شيء يا بدر]

هذا ما بدا عليها بالفعل... عمياء لأنها تحمل العصاة ولا تستطيع تحديد أي شيء... ولكن كيف عرفت بوجودي هنا؟!

قالت لي: [مع ذلك... فأنا شعرتُ بسارة المسكينة... وأخبرتُ أخي أن شقيقة صديقك في خطر إن لم نسرع لإنقاذها...]

فتذكرتُ حديث محمد عندما قال لي أن لولا الله ومن ثم أخته لما تمكنوا

من الوصول إلى هنا وإنقاذها.

قالت لي: [لماذا لا تتحدث؟! هل أبتلع القط لسانك؟!]

ضحكت ضحة مرحة مفعمة باللطف، وأبتسمتُ أنا.

قالت: [لا داعي بأن تشعر بالندم والحزن... أبتسم للحياة وأبعد الهموم والأحزان إلى مكان بعيد عن قلبك]

سألتها: [ما الذي حصل لخالد وعمار؟!]

قالت لي: [هل تقصد اللصوص؟! إنهم في السجن الآن... لقد اتصل أخي بالشرطة بمساعدة سارة... وأعتقد أنهما في السجن بتهمة التسلل إلى المنزل والتعدي... لا حول ولا قوة إلا بالله]

تنهدت بعمق، وأضافت: [لقد كان أخي يلومك كثيراً...]

أدخلتُ يدي بجيبي وأخرجتُ علبة السجائر والولاعة وأشعلتُ لنفسي عامود الموت والقذارة، وصرتُ أدخن...

سألتني: [منذ متى تدخن يا بدر؟!]

وما علاقتكِ أنتِ بذلك؟!... لقد كنتُ على وشك أن أسألها هذا السؤال... كم أنا وقح!!

قالت لي: [لا داعي بأن تجيب... ليس لي أية علاقة بذلك...]

جيد أنها عرفت ذلك...

قلتُ لها لكي لا أخيب ظنها: [خمسة أشهر...]

وحل علينا صمتٌ غريب جداً... فصرتُ أنظر إلى وجهها الأبيض المشرق...

ثم سألتني: [كيف هو مظهرك؟!]

لم أتخيل أنها ستسألني هذا السؤال الغريب والعجيب، وبصراحة تامة لم أستطع أن أجيب عليها.

فقلتُ لها: [لماذا تسألينني هذا السؤال؟!]

قالت لي: [هدوئك هو الذي جعلني أسألك هذا السؤال...]

ثم قالت قبل أن أنطق: [لا داعي بأن تجيب... لا داعي...]

ماذا سيكون موقفها لو رأتني؟!... ربما ستعجب بي أو تتقيأ... أو ربما تضحك...

سألتها: [ما أسمكِ يا صغيرة؟!]

قالت لي: [أسمي نورة]

قلتُ لها: [أسمٌ جميل... أعجبني كثيراً...]

قالت لي: [ما رأيك أن تصحبني في جولة حول هذه الحديقة يا بدر؟! إن جو الصباح البارد يشعرني بالراحة]

فوافقت على رأيها، ومسكت عصاتها وأخذتُ أجرها من مكان إلى آخر.

سألتني: [ما هي طموحك يا بدر؟]

أجبتها: [أن أصبح رجل أعمال كبير مثل والدي... وأن يكون لي أولاد يعيشون في بيت لا يخلوا من السعادة...]

[رائع... آمل أن تحقق كل أحلامك في المستقبل...]

[ماذا عنكِ يا نورة...؟]

[أتمنى أن أرى وجه الله... أريد أن ألقاه]

يا لها من أمنية!! كم هي رائعة!! تمنيت وقتها أن أكون مثلها... أعمى لا

أرى شيئاً... كي لا أذهب إلى تلك الأمان ولا أترك شقيقتي لوحدها... ولكن الحمد الله على نعمة البصر...

رميت سيجارتي على الأرض بعد أن حرقتها، فدستها وأخرجتُ واحدة أخرى، وصرت أدخن...

سألتني: [لقد أنتهيت من واحدة قبل قليل... لماذا أخرجت أخرى؟!]

تنهدت وقالت لي: [الشباب دائماً هكذا... يضيعون حياتهم من أجل أتفه الأشياء]

فسألتني: [ماذا ستقول لولدك إذا سألك لماذا تدخن...]

قلتُ لها لا إرادياً: [أعتقد أن لدي ولد أو فتاة الآن...]

[ماذا؟!... لم أفهم؟!]

فرجعت لوعي وأنا أقول: [لاشيء يا نورة... ما رأيك أن ندخل إلى المنزل؟!]

[كما تشاء يا بدر...]

دخلنا المنزل وعندها قالت لي: [ستجد مفتاح سيارتك فوق الطاولة هناك... لقد سرقوها منك على ما أعتقد.. ولكن كيف لهم أن يسرقوا السيارة منك؟!]

[لا أعلم كيف حصلوا عليها... ولكنهم حصلوا عليها]

[بدر... هل لي بطلب؟]

[نعم... أطلبي ما تشائيين]

قالت برقة: [أريد الجلوس على الأريكة لو سمحت...]

لم أتوقع أن يكون هذا طلبها أبداً... كم هي رائعة!

وبعد أن أجلستها على الأريكة قالت لي: [قد لا ترضى على نفسك أن طلبتُ منك أن تحضر لي الماء... لذا قلتُ لك أجلسني على الأريكة]

ضحكتُ معها قليلاً، وقلتُ لها: [غالي والطلب رخيص...]

ضحكة تلك الفتاة... أزاحت عني كل الهموم والأحزان... لقد نسيتها حقاً وركضتُ بسرعة إلى المطبخ لأحضر لها كأساً من الماء البارد.

فعندما وصلت إليها قلت: [تفضلي أيتها الأميرة... هل من أوامر أخرى؟]

أبتسمت وأخذت ماء من يدي... وشربته بكل لطف، وقالت: [هل أعدت الكأس إلى مكانه أيها الفارس النبيل؟]

قلتُ لها بكل سعادة: [كما تأمرين يا صاحبة السمو]

صدر صوت من الطابق الأعلى وهو يقول لي: [أخي بدر...!]

لقد كانت شقيقتي وهي على الدرج الحلزوني الكبير، فركضت لتحضنني وهي تبكي بألم.

قالت نورة: [لا داعي لذلك يا سارة... هذا يكفي الآن...]

سألتها سارة: [منذ متى وأنتِ مع أخي؟]

ردت هي: [منذ الصباح الباكر... ولقد تنزهنا في الحديقة أيضاً]

نظرت سارة إلي وهي تمسح دموعها... وقالت: [هل عرفت ما الذي حدث لخالد وعمار الشريران... القذران]

نظرتُ إلى الأرض من شدة الندم وقلت لها: [أعذريني... إنه خطأي...]

قالت نورة: [لا... ليس خطأك... أنت لم تكن تعلم ما كانا يخططان له... ولكن الحمد الله على كل حال... زال الهم... وصار من الماضي]

قالت سارة وهي تنظر إلى نورة: [شكراً يا نورة... شكراً على كلماتك الرائعة]

قلت لهما: [أنا جائع... ما هو فطورنا؟]

سحبتني سارة إلى أبعد حد ممكن لكي لا تسمعنا نورة، وقالت: [أسمع... إذهب وأحضر لنا فطوراً لائقاً... هيا أسرع...]

قلتُ مستهزءاً بها: [ما الأمر؟ لما لا تحضرين الطعام بنفسك كالعادة؟... المطبخ أمامك تماماً... هل تخافين أن لا يعجبهم صنع يديكِ؟]

ضربتني على رأسي ضربة خافتة، وقالت: [هيا أيها الأحمق... إذهب الآن]

اتجهت إلى الطاولة ورمت إلي المفتاح وسلمت عليهما وخرجت من فوري وأنا أولع سيجارة أخرى.

ركبتُ سيارتي الفاخرة وانتظرتها حتى تسخن قليلاً، ولقد كانت على وجهي ابتسامة سعادة... كان سببها تلك الفتاة الصغيرة... أزاحت عن صدري ذاك الهم الكبير وكأنه جبل.

حركتُ سيارتي وأخذتُ أفكر بها طيلة الطريق، ولم أستطع محو تلك الابتسامة النابعة من قلبي الذي لم يحتمل الأحداث التي مررتُ بها، ولم تمضي سوى دقائق قليلة حتى وصلت إلى أفخم مطعم... وكانت الساعة الثامنة والنصف، دخلتُ المطعم وتذكرتُ عندها أنني لم أستحم منذ يوم البارحة، حتى أن شعري لم يكن مرتباً ولم أكن أرتدي الغترة.

بصراحة لم أتعود على هذا الشيء أبداً...

يا إلهي!!... لقد كنتُ بهذا المظهر أمام تلك الفتاة؟؟!!... يا له من أمرٍ مشين... سحقاً!! لقد نسيت أنها عمياء... ولكنها ترى من خلال قلبها

وعقلها... وكلماتها السحرية التي جعلتني من الحزين إلى السعيد... أشعر بأنها ستعيد إلي أيامي السعيدة التي عشتها مع أبي ومع سارة، ليتها تعود... ليتها تعود...!!

أتى إلي النادل وسألني: [أهلاً بك يا سيدي... هل تبحث عن كرسي لتجلس عليه؟]

[كلا... أريد فطار لخمسة أشخاص من فضلك...]

[حسناً... خذ هذه القائمة وأختر ما تشاء...]

سألت نفسي: [بما أنهم زوار في بيتي... لا بد لي أن أحسن الأختيار]

طلبت منه: [أعطني البيض والتبولة واللحم المقلي والحمص...]

قال لي النادل وهو يحاول أن يخبئ ضحكته: [أرجوك أعذرني على وقاحتي... ولكن هذا ليس فطوراً يا سيدي...]

شعرتُ بالخجل من نفسي وقلتُ له: [حسناً... ماذا علي أن أختار؟!... فمعي ضيوف في البيت... وأنا لستُ معتاداً على الزيارات]

قال لي بابتسامة لطيفة: [ما رأيك أن تدع الأمر لي يا سيدي؟ أعدك أن تنال ما يرضيك...]

ابتسمتُ له: [حسناً... أعتمد عليك إذن...]

قال لي: [انتظرني ربع ساعة فقط...]

[حسناً... سأنتظرك هنا...]

جلستُ على الكرسي الفاخر وأنا ألعب بالملاعق الموجودة على الطاولة بجانب النافذة، وصرت أفكر... يا ترى ما الذي حدث لخالد وعمار؟!...

ما الذي يفعلونه الآن في السجن؟!... اللعنة كيف لي أن أثق بهم؟!... كيف لهم أن يفعلوا هذا بي؟!... أنا صديقهم الذي كان يصرف عليهم ولا يبخل عليهم بشيء!... يستحقان ما حل بهما، ويبدو أن محمد لم يتمالك أعصابه ليلة البارحة من القهر والغيض... كيف له أن يشعر بالراحة وهو يرى أخت صديقه... لا أستطيع تخيل الموقف من شدة غرابته وخطورته... وأشعلتُ سيجارة أخرى... وكانت آخر عامود في العلبة.

وبعد دقائق، أعطاني كيساً كبيراً، وأعطيت نقوده وخرجت من المطعم إلى السيارة وأنا متفائل لأرى وجه أختي وهي سعيدة بما أحضرت... بالتأكيد ستكون في قمة السعادة لأنني أفعل الشيء الذي يسرها.

وها أنا ذا عند باب قصري الكبير ذو الطابقين والسرداب، نزلت من السيارة وحملت الكيس إلى الداخل ومن ثم إلى المطبخ، وكانت أختي تنتظرني.

وبختني: [لماذا تأخرت؟!]

[لقد كان المطعم يحضّر الطعام لتوه...]

[كان عليك أن تتصل به قبل كل شيء... حتى يحضّرها وأنت على طريقك]

[لم يخطر هذا على بالي... ولكن لا تقلقي يا سارة... سأفعل هذا في المرة القادمة...]

[لا يهم الآن... ولكن ماذا طلبت للفطور؟]

[كله من رزق رب العالمين]

[إن كان قليلاً فسوف أقضي عليك...]

[هيا يا أختي أنا جائع...]

قالت لي وهي تخرج الطعام من الكيس: [إذهب لتوقظ صديقك... أعتقد بأن أسمه محمد...]

[نعم... أسمه محمد... الأسم المفضل لديك... هل هذا صحيح؟]

قالت وهي سرحانة: [لقد كان خارقاً... أنت لم تره وهو يقفز تلك القفزات المخيفة والركلات القوية... لقد أسقطهما على الأرض بركلة واحدة... كم كان قوي!]

قلتُ لها: [حسناً... سأذهب إليه الآن...]

ركضتُ إلى الصالة لأرى نورة تجلس على الأريكة وهي تتحدث إلى فتاة أخرى.

قالت الفتاة: [صباح الخير...]

[صباح النور... أهلاً بكِ في منزلي المتواضع]

كانت تتحدث بابتسامة عندما قالت: [لقد خفنا عليك كثيراً عندما سقط على الأرض بالأمس...]

[لم يكن هناك أي داعٍ لذلك يا آنسة]

[أدعى سمية وأنت بدر، أليس كذلك؟]

[أجل... أنا هو...]

[أنت كالبدر حقاً... كم أنت وسيم!]

أحمرت وجنتاي وقلت لها: [شكراً على المديح... هل أستيقظ محمد؟!]

[لا نعرف عنه شيئاً]

[حسناً... أستأذنكما لأذهب إليه...]

صعدت إلى الطابق الآخر لأدخل غرفتي وفتحت الباب لأجده جالساً بطريقة غريبة... ومن ثم أخذ يتمرن على تمرينات البطن والضغط... كدت أن أموت من الدهشة عندما وجدته يرفع رجله الأيسر حتى رقبته.

سألته: [كيف لك أن تفعل شيئاً كهذا؟!]

أجابني: [إنها مجرد تمرينات صباحية يا بدر... وأنا أستخدم الكاراتيه للدفاع عن نفسي... إنها سلاحي الوحيد... والأقوياء هم الذين يقاتلون بعقولهم وليس بعضلاتهم]

ثم قلتُ له: [حسناً... الفطور جاهز... هيا أمامي...]

خرج من غرفتي وتبعته إلى الأسفل لتناول الفطور...

وبعد صلاة الظهر، جلسنا أنا ومحمد في غرفة الحاسوب في الطابق العلوي وكنا نلعب الـPlaystation 3 على تلفاز كبير، وكان المكيف يبرد المكان والأضواء البرتقالية تضيء المكان، وكنا نلعب لعبة القتال الشهيرة Street Fighter.

قال محمد بثقة: [لن تهزمني يا بدر... أنا خبير في هذه اللعبة]

قلتُ له بتحدي: [سنرى ذلك يا خبير...]

لقد كنتُ سعيداً جداً، شعرتُ وكأن حياتي رجعت إلي من جديد، بالفعل لقد أنقذوني من الأوهام التي أعيشها... وها أنا ذا ابتسم طيلة الوقت، ومصرٌ على هزيمته.

قال لي بعد أن هزمني: [ألم أقل لك؟! أنا خبير يا بدر... وأعرف جميع الأساليب]

قلتُ له: [كلا... الشخصية التي أخترتها أنا لم تكن قوية... سترى الآن من سيفوز]

أصبح صدري خفيفاً بدون أي هموم أو أحزانٍ أخرى، فبعد وفاة والدي صرتُ أشعر بالنقص أمام الناس، ولا أملك الثقة الكافية لأكون علاقات معهم، لقد تغيرت حياتي كلها وأصبحت شخصيتي ضعيفة ومهزوزة، وكان عمار وخالد يتحكمان بي كيفما أرادا، فأنا بنكهم المتنقل ذو نقود لا نهائية.

قال محمد بضجر: [لقد مللتُ من هذه اللعبة الآن... هل لك أن تغيرها لي يا بدر...]

[كما تشاء... ولكن ماذا تريد أن تلعب...]

أخذ ينظر إلى الألعاب المصفوفة قرب التلفاز: [حسناً... دعنا نلعب لعبة Resident Evil 5 لقد حصلت على تقيم جيد في شبكة المعلومات]

قلتُ له: [أعرف ذلك... قرأتُ هذا في موقع Game Spot لقد حصلت على ٧ من أصل عشرة]

لو أني لم أتعرف على محمد في ذلك اليوم... لما أنقذني وأنقذ عاري، لقد جعلني أفهم الحياة أكثر... رغم أني ورثتُ من أبي كل تلك الممتلكات، إلا أنها لم تنفعني أبداً، بل تدهورت حالتي بسببها، وأنا الآن أحاول جاهداً أن أرغم نفسي بعدم التدخين أمام محمد.

قال لي: [هيا شغلها يا بدر... سأرى إلى أي فصلٍ وصلت]

قلتُ له: [لم ألعبها منذ زمن... ولا أذكر إلى أين وصلت في هذه اللعبة]

قال لي: [لا عليك يا صديقي...]

ثم دخلت شقيقته سمية إلى الغرفة، وقالت: [الغداء جاهز الآن... هيا تعالا بسرعة قبل أن يبرد]

ونحن في طريقنا إلى غرفة الطعام، سألني محمد: [لماذا لا تأتي بخادمة تساعد شقيقتك في المطبخ يا بدر؟]

لقد كنتُ على وشك أن أفصح له السر، ولكنني قلتُ له: [في الحقيقة يا صديقي هو أن سارة تريد أن تعمل لوحدها... لا تريدني أن أحضر لها الخدم]

قال لي: [اها... فهمتُ الآن... كم هي رائعة ونشيطة!]

وبعد صلاة العصر، تجهزوا جميعاً للمغادرة.

قال لي محمد: [أتمنى أن أزورك مرةً أخرى يا بدر]

قلتُ له: [حياكم الله فأي وقت]

قالت نورة وهي في سيارة محمد: [بدر... أتمنى أن تزورونا أنت وسارة أيضاً]

[سنزوركم بالتأكيد... في الصيف]

قال محمد لي: [سأشتاق إليك...]

مد يده ليصافحني... وركب سيارته وغادر المكان إلى ديارهم.

قالت سارة: [لقد أنقذوني... لن أنسى جميلهم هذا ما حييت وجزاهم الله خيراً...]

[سارة... أنا آسف على ما حدث...]

[أنسى الأمر يا بدر... هيا ندخل إلى الداخل...]

ونحن متجهان إلى الداخل، وقفت سيارة سوداء عند باب منزلي، فنزل رجلين يرتديان الكندورة والغترة والعقال من السيارة، الأول لم يكن ملتحياً والثاني كانت ملامحه قريبة من ملامح والدي، فطلبتُ من أختي أن تدخل إلى داخل لأتحدث معهما لأعرف من هما.

قال الأول: [السلام عليكم... كيف حالك يا بدر؟]

[وعليكم السلام... بخير والحمد الله... لكن من أنتما؟]

قال لي: [لقد كبرت يا بدر... ولم تعد تتذكرنا... أنا عمك طلال وهذا عمك عُمر]

تعجبتُ من ذلك غاية العجب... كيف لهما أن يتذكراني ونحن لم نلتقي منذ زمن بعيد جداً؟!

سألت نفسي: [ما الذي يريدانه مني بعد كل تلك السنوات؟!]

><><><><><><><><><><

الجزء الثانـي:-

عندما تكتشف أن الشخص الذي تحبه ليس سوى وحشٍ غدار، لا تجعله يدمر ثقتك بالآخرين...

الفصل الرابع:-

أدخلتهما المنزل وهما يتأملانه بذهول تام، وطلبتُ من سارة أن تعد لنا الشاي، وأجلستهما على الأريكة البنية الفاخرة وشغلتُ المكيف.

سألتُ عمي طلال بابتسامة: [لما لم تحضر ابناءك أيضاً يا عمي؟]

قال لي بنظرة قاسية: [ولما أحضرهما إلى هنا؟!]

قلتُ له: [ما بك يا عمي؟! ألا تريدنا أن نتعرف عليهم؟!]

قال عمي عُمر: [يا لهذا البيت الرائع! لا أصدق أنكما تعيشان في هذا القصر لوحدكما!]

قلتُ له: [بل صدق يا عمي عُمر... أنا وسارة نعيش هنا لوحدنا]

قال عمي طلال: [أعتقد بأنني رأيتُ سيارةً تبتعد من المنزل]

قلتُ له: [إنه صديقي يا عمي... لقد أتى لزيارتي]

ودخلت سارة علينا وهي تحمل صينية عليها الدلة والفناجين وهي تقول: [لقد أنقذ ذاك الشاب حياتي يا عمي... من دونه لكنتُ في لسان كل الناس]

تعجبا، فقال عمي طلال: [لم أفهم!... كيف له أن ينقذ حياتكِ؟!]

قلتُ لهما: [لقد تسللا شابان إلى المنزل وكانت سارة وحيدة في المنزل وأنا كنتُ في الخارج... عند أصدقائي...]

استكملت سارة: [لقد حاولا التعدي علي يا عمي... ولكن الشاب أتى في الوقت المناسب وأوقفهما، ومن ثم أتت الشرطة وأخذتهما إلى السجن]

قال عمي طلال: [هذا لا يهم الآن... هناك الأهم]

تعجبتُ من كلامه، ولم يندهش أو يتعجب أو يغضب بما حكيناه إليهما.

قلتُ له: [هل هناك أهم من هذا؟!]

جلست سارة بقربي وهو يقول: [أسمع يا بدر... أنا ولي أمركما الآن... لذا سأدخل في صلب الموضوع لأني أكره المقدمات...]

قالت سارة: [للأسف يا عمي طلال... أنت لست ولي أمرنا لأننا لم نرك منذ زمن بعيد جداً... وذلك بسبب خلافك مع أبي]

صرخ بغضب: [أنا ولي أمركما شئتما أم أبيتما... هل هذا مفهوم؟!]

غضبتُ منه، وقلتُ له: [لو سمحت يا عمي لا تصرخ هكذا في وجهنا فنحن لسنا صغاراً... ودعني أسألك سؤالاً واحداً... منذ متى توفي والدي؟]

قال لي: [منذ ثلاثة شهور تقريباً...]

قلتُ له: [وأين أنت كل تلك المدة عنا يا عمي العزيز؟!]

قال لي وهو يفكر: [لقد كنتُ مشغولاً...]

قالت سارة بقهر: [نحن لم نركما منذ أكثر من خمس سنوات... ولقد مات والدنا منذ ثلاث شهور ولم يخطر ببالكما أن ترفعا الهاتف وتتصلون بنا...]

صرخ عمي عُمر: [كيف تجرئين وتتحدثين إلى عمكِ بهذه الطريقة الوقحة؟!]

قال عمي طلال بهدوء: [لا داعي للغضب... إنهما ولدا أخينا الحقير... فبالتأكيد سيكونان حقيرين مثله...]

قلتُ له بقهر: [لقد تماديت يا هذا.. لا أسمح لك بأن تنعته بالحقير أمامي]

قالت سارة: [ماذا تريدان منا؟!... أنتما لم تأتيان من أجل رؤيتنا والأطمئنان علينا...]

قال عمي طلال: [أجل... نحن لم نأتي من أجلكما...]

قال عمي عُمر: [نحن هنا من أجل الممتلكات...]

قلتُ لهما باستغراب: [ما الذي تقصدانه؟!]

قال عمي طلال بكل هدوء: [بما أني أنا هو ولي أمركما يا بدر... إذن عليكما بتسليم كل شيء لي... كل الممتلكات المكتوبة بأسم والدكما]

قالت سارة بعصبية: [يا لكما من حقيرين... تريدان أن تستولوا على كل ما رزقنا الله به؟!... ألم تفكروا أن هذا حرام يغضب رب العالمين؟!... نحن يتيمين لا نملك أباً أو أماً... تريدان أكل أموالنا؟!]

قلتُ لعمي: [يؤسفني أن أقول لك يا عمي... أنني لن أعطيك شيء... إنها ممتلكاتنا ولا تملكان الحق فيها...]

قال لي بغضب: [أنتما متمردان مثل والدكما الغبي، سآخذ منكما كل شيء... لن أترك لكما شيئاً]

ضحكتُ بصوت عالي، وقلتُ لهما: [لن تتمكنان من فعل شيء... كل شيء مسجل بأسمي]

تعجب عمي طلال وقال لي: [ماذا؟!... كل شيء بأسمك؟!]

قلتُ له: [أبي كتب كل شيء بأسمي قبل وفاته... فعل هذا ليضمن مستقبلنا... يبدو أنه عرف ما كنتما تخططان له...]

ثم قلتُ له بحقد: [أي قلبٍ تملكانه؟!... تريدان أن تأخذوا منا كل شيء... وأنتما لا تملكان أي حق فيها... إن كل تلك الممتلكات من ثمار جهود والدنا... هل تفهمان ذلك؟!]

قالت سارة: [لن يرضى رب العالمين عليكما أبداً... أنتما حتى لا تستحقان أن تكونا شقيقيه... أنتما تشتمانه وهو في قبره]

قال عمي طلال: [أسمعاني جيداً... إن لم تعطيانا كل شيء فسوف تندمان...]

قلتُ له مستهزءاُ: [أوه حقاً؟!... وما الذي ستفعله بنا؟!... ستقتلنا؟!]

ابتسم ابتسامة خبيثة حين قال: [أجل... سأقتلكما من أجل أن أحقق انتقامي...]

ستائلت: [انتقام؟!... إذن أنت لا تريد المال أو ممتلكاتنا... أنت تريد أن تنتقم منا؟!... ولكن لماذا؟!]

قال لي: [ليس منكما... بل من والدكما الحقير الجبان...]

وقفتُ على قدمي ومن ثم قلتُ لهما بغضب: [أخرجا من منزلي في الحال!... هيا أخرجا...]

وقفا هما كذلك وقال عمي طلال: [سنرى من سيطرد أخيراً... أنا سأسكت الآن... ولكن تذكر أنني سأفعل المستحيل لأجعلكما متشردين في الشوارع تطلبان الرحمة مني...]

اتجهتُ إلى الباب وفتحته بقوة وأنا أقول لهما: [هيا أخرجا في الحال... ولا تفكرا أن ترجعا إلينا أبداً...]

قال عمي طلال: [سنعود إليكما لنطردكما من هذا القصر الجميل...]

وقبل أن يخرج من الباب، صفعني بقوة على وجهي ونظر إلي وكأنه سيقتلني وقال لي: [تشبه والدك كثيراً... تشبه ذاك المتعجرف...]

لقد أرتُ أن أوسعه ضرباً، ولكني أكتفيت بمراقبتهما يخرجان من المنزل.

جلستُ على الأريكة بقرب أختى التي كانت تبكي بقهر ومرارة، وهي تقول: [حسبنا الله ونعم الوكيل... حسبنا الله ونعم الوكيل... أمعقول ما يحدث هنا؟!...]

ثم قلتُ لأختي: [أغلقي الأبواب جيداً... سأخرج إلى مكانٍ ما... قد أتأخر]

قالت لي: [إلى أين ستذهب...؟]

قلتُ لها وأنا اتجه إلى الباب: [إلى مكان قريب... أغلقي الأبواب جيداً حتى وصولي]

خرجتُ إلى سيارتي وركبتها، وأشعلت سيجارة جديدة، ومن ثم ذهبتُ إلى الهلاك من جديد... إلى المرقص، وصرتُ أسأل نفسي كثيراً... ماذا علي أن أفعل؟!... إن الأشرار موجودون في كل مكان... أولاً الحقيران خالد وعمار والآن يظهر أمامنا حقيران آخران... ولكنهما من عائلتي... لماذا يفعلان كل هذا؟!... ما هو الانتقام الذي تحدث عنه عمي طلال؟!... وما سر الخلاف بينه وبين والدي؟!... والأهم من ذلك، ما هو ذنبنا أنا وسارة؟!... لماذا نقف على أشواك أقربائنا؟!...

أوقفتُ سيارتي عند المرقص ودخلتُ فيه لأجده غير مزدحم، والسبب أن اليوم هو يوم السبت، آخر عطلة لنا.

جلستُ على الكرسي وأطلب من النادلة زجاجة مليئة بالكحول المشبع بالثلج، وصرت أشرب ودموعي تنهمر على خدي وأنا أدخن، كل دمعة ثقيلة أكثر من قبلها، لقد كنتُ أذرف دموعاً أشد ملوحة من ماء البحر.

وكلما أنتهي من شرب كأس أطلب آخر... حتى ذاب عقلي في جمجمتي، ونمتُ على الطاولة والسيجارة بيدي من شدة الأرهاق والتفكير في تخطي هذه المصيبة.

وصرت أشرب رغم أن عيني كانت مغلقتين، وظللتُ هناك حتى ساعة متأخرة من الليل، وطردوني من المرقص والسبب هو أني تبولت هناك وأنا نائم... فرموني في الشارع، فتخيلتُ بأن عمي من قام بطردي وليس هم.

وبعدها ركبتُ سيارتي ورجعتُ إلى البيت وأنا في حالة يرثى لها، وعندما حاولتُ فتح الباب رأيته مغلقاً... فنمتُ عنده.

وفي الصباح الباكر وجدتُ أختي توقظني.

[بدر... هيا أستقيظ...]

فتحت عيني فسألتني: [لماذا تنام عند الباب؟!... ولماذا تأخرت عن البيت؟!]

لم أقل لها شيئاً، لقد كنتُ تعباً وأشعر بالنعاس الشديد.

قالت لي: [هيا أنهض لتصلي الصبح...]

وقفت على قدمي بصعوبة بالغة، واتجهتُ إلى الحمام.

قالت أختي: [إن رائحتك نتنة... ما الذي حدث معك أخبري يا أخي؟]

شممتُ نفسي... فعرفت أنني تبولت في نفسي ليلة أمس.

قلت لها: [لا شيء... لا شيء... سأذهب لأستحم]

أخذتُ ملابسي واتجهتُ إلى الحمام وصار الماء ينهمر على جسمي، وكانت برودته عالية قليلاً، ولكنني لم أكترث له، فعقلي متوقف عن التفكير من شدة التعب والإرهاق، لقد أصبح قلبي ممتلئ بالهموم والتفكير بسبب ما حدث أمس.

لقد كان الأمر صعباً علي أنا الرجل، وما هو بالنسبة لفتاة مثل أختي سارة؟!... لن تقدر على حمل هذا الهم أبداً.

لقد أخرجني محمد من همي الأول، فوقعتُ على همٍ آخر.

خرجتُ من الحمام ولبستُ ملابسي الداخلية ومن ثم الكندورة، وفرشتُ السجادة وأنا أفكر بكلام عمي طلال، وأنا قلق جداً، ولكني حاولت التركيز في الصلاة بقدر المستطاع رغم صعوبة الموقف.

ونمتُ على السجادة من شدة التعب حتى أيقظتني أختي.

[هيا يا بدر... أستيقظ... عليك الذهاب إلى الكلية]

لم أكن أريد أن أبين لها أنني متعب جداً، لذا وقفتُ من جديد وترتبتُ وشربتُ الحليب وخرجتُ من البيت لأركب سيارتي التي كانت واقفة بطريقة عرضية.

أشعلتُ السيجارة وغادرتُ المكان إلى الكلية.

لقد تحملتُ نفسي كثيراُ في الكلية والسبب أنني كنتُ أشعر بنعاس شديد وصداع ما بعده صداع، وكانت المعلمة تسألني كلما لاحظت أنني سرحان حتى تتأكد إن كنتُ معها أم لا... ولكنني كنتُ أخيب ظنها دائماً.

وكنت أجلس مع مجموعة مكونة من أربع طلاب، وكلهم يلاحظون التعب في عيني.

قال الأول: [بدر... ما بك؟!]

قال الثاني: [ألم تنم جيداً بالأمس؟!]

قلتُ لهم: [لا شأن لكم... تابعوا الدرس بدوني... وكأني غير موجود]

قال الثالث: [أنظر إلى السواد الذي تحت عينيك... أنت تشبه المجرمين]

أتت المعلمة إلى مجموعتنا، وسألتنا بالانجليزية: [هل تعملون جميعاً مع بعضكم البعض؟]

قلتُ لها: [بالتأكيد... نحن نعمل بجد]

قال الثالث: [كلا يا آنسة... إنه متعب جداً... لا يمكنه مشاركتنا... أنظري إلى السواد الذي تحت عينيه]

صرخت في وجهه: [هذا ليس من شأنك!!... لا تتدخل بشيء لا يعنيك]

قال لي: [ونحن لا نريد أن يكون في مجموعتنا طالب كسول...]

هنا بالتحديد شعرتُ وكأنني أسرق حريتهم في العمل كمجموعة كاملة.

ثم قلتُ لهم بندم: [آسف... سأعمل بجد...]

قالت المعلمة: [بدر... هل أنت بخير؟]

قلتُ لها: [نعم يا آنسة... أنا بخير...]

قالت: [حسناً... أستمروا في العمل... باقي خمس دقائق لتنتهوا من تدقيق على جملكم]

وفي الاستراحة، وضعتُ رأسي على طاولتي وغرقت في نوم عميق جداً، ولكن الاستراحة لم تكن سوى دقيقتين بالنسبة لي لأن الطلاب كانوا يلعبون الـCounter Strike وكانوا يزعجوني بصراخهم المتكرر.

وصرتُ على هذه الحال لمدة أسبوع كامل، وكنتُ دائماً أذهب إلى

المرقص لأشرب ذاك السم اللذيذ إلى وقت متأخر، لا أفكر إلا بكلام عمي طلال.

في يوم الجمعة، وبعد رجوعي من المسجد إلى المنزل، جلستُ على طاولة الطعام لتناول الغداء.

قالت سارة: [لدي أقتراح... أتمنى أن يعجبك...]

[ما هو؟]

[إنه بخصوص عمي طلال... هناك طريقة نجعله يبتعد عنا نهائياً]

[ماذا؟!... كيف ذلك؟!]

[أستمع إلي...]

><><><><><><><><><><><><><><><><

الفصل الخامس:-

أخذتُ انظر إليها بنفاد صبر، فقالت: [علينا أن ننقل كل شيء إلى محمد]

[لم أفهم... ما الذي تقصدينه؟!]

[أسمعني جيداً... حاول أن تجعل كل ممتلكاتك باسم شخص آخر... وعندما يعرف عمي طلال ذلك... سيستسلم ويبتعد عنا... لأنه لا يوجد شيء يأخذه منا... هل فهمتني؟!]

[في الحقيقة لا... حاولي أن تشرحي لي الأمر بسلاسة]

[عمي يريد أن يستولي على حقوقنا... ولأنه ولي أمرنا ومثل ما قال... سيفعل المستحيل ليشردنا في الشوارع...]

[إذن... ما المطلوب؟]

[سجل كل تلك الممتلكات بأسم محمد...]

[ماذا؟!... ولماذا أفعل كل هذا؟!]

قالت بنفاد صبر: [ألم تفهم بعد؟!... إذا كان كل شيء مسجل بأسم محمد، فإن عمي لن يستطيع فعل شيء لنا... لأننا لا نملك شيئاً يستحق العناء لأجله]

[فهمت الآن... ولأننا سنكون بلا ممتلكات، إذن سيرى عمي أننا فقراء بلا شيء...]

[جيد أنك فهمت ذلك يا عزيزي... ولكن هل تتوقع أنه سيوافق؟]

قلتُ لها بحيرة: [أتوقع أنه سيخوننا ويسرق كل شيء...]

قالت لي: [ماذا؟!... ولماذا يخوننا؟!... إنه لطيف ومحترم]

تنهدتُ بقوة، وقلت: [حسناً... سأتصل به الآن وأخبره بأن يأتينا الآن]

[إنه في رأس خيمة... المسافة بعيدة جداً...]

أخرجتُ هاتفي المحمول واتصلتُ به مباشرة.

رد علي: [مرحباً بدر... كيف حالك يا صديقي؟]

[بخير... وماذا عنك؟]

[الحمد الله...]

[محمد... هل يمكنك أن تأتيني الآن؟]

[ماذا؟!... آتيك الآن!!... لماذا؟!]

[لا أستطيع الشرح على الهاتف... ارجوك تعال... أنت أملي الوحيد]

[ما الأمر؟!... ما الذي حدث يا بدر؟!]

[قلتُ لك لا يمكنني الشرح في الهاتف... أرجوك تعال إلي اليوم...]

[هل تريدني أن أقود السيارة كل تلك المسافة؟!]

[ألا أستحق ذلك؟!]

[بلى ولكن...]

[إن الأمر خطير... بل أخطر من الذي تتوقعه... إنه يتعلق بمستقبلي أنا وأختي... أرجوك تعال]

أخذ يفكر قليلاً، ثم قال: [حسناً... سأستأذنهم وآتي إليك...]

سعدتُ كثيراً من رده، فقلتُ له: [أنتظرك على أحر من الجمر...]

أغلقتُ الهاتف، وبعد لحظات دخلتُ غرفتي الكبيرة، أشعلتُ المصابيح والمكيف ووضعتُ رأسي على السرير الأصفر، ولكني تلقيتُ اتصالاً غريباً، إذ كان الرقم غريباً، لم أتعرف عليه.

ردتْ: [مرحباً...]

[أهلاُ... كيف حالك؟]

لقد كانت فتاة... نعم صوت فتاة شديد النعومة.

[بخير... ولكن من؟]

[معجبة]

[ماذا؟!... معجبة بمن؟!]

[معجبة بصاحب هذا الصوت]

[من أنتِ؟!]

[قلتُ لك معجبة... معجبة بصوتك...]

[آسف... أنا لا أتحدث مع الفتيات]

[ولكنني أريد التحدث معك يا بدر]

[كيف عرفتي أسمي؟!]

[قلتُ لك أنا معجبة... معجبة بك يا بدر]

تغيرت نبرة صوتي إلى نبرة جادة: [أسمعي... أنا أكره المقدمات... قولي لي ما الذي تريدينه؟!]

قالت وبكل رقة: [أريد مقابلتك يا حبيبي]

[من أجل ماذا؟]

[أريد التعرف عليك أكثر يا حبي]

[لا تقولي لي حبي!!... وأنا لا أريد التعرف عليكِ]

[لا تكن سخيفاً يا حبيبي بدر... عندما نتقابل ستعرف كل شيء]

أخذتُ أفكر، وكان الشيطان يجرني إليها، فقلتُ لها: [حسناً... متى تريديننا أن نتقابل؟]

[ما رأيك بمركز العين اليوم؟!]

[حسناً... في أي ساعة؟]

[الآن يا حبيبي... فقط ساعة واحدة]

[حسناً... أنا قادم... عندما أصل هناك سأتصل بكِ]

أغلقتُ الهاتف وركضتُ بسرعة إلى أختي سارة التي كانت في المطبخ تنظف الصحون وقلتُ لها أني لن أتأخر، ساعة واحدة فقط لأن لدي موعد مهم.

خرجتُ إلى سيارتي الفاخرة وتحركت بسرعة إلى المركز وصرتُ أدخن طوال الطريق، وأنا أفكر بتلك الفتاة، لقد شعرتُ في البداية أنها مجرد خدعة لتحصل على فتى غني لا يقصر أبداً، ويجعلها تعيش كالملوك، ولكنني قررتُ وفكرتُ جيداً، إن كان هدفها المال، سأتركها في الحال، ولكن ربما كان هناك شيء آخر يجعلها تتصل بي.

لحظة... من أين لها برقم هاتفي؟!

دخلتُ إلى المركز لأتصل بها في الحال.

سألتها: [أين أنتِ؟]

[أنا في ركن المطاعم، تعال هناك]

أغلقتُ الهاتف لأتجه بسرعة إلى ركن المطاعم، وأخذ مني ذلك وقتاً طويلاً حتى أصل إلى هناك، لأن المركز كان مزدحماً، لا عجب في ذلك لأنه يوم الجمعة.

وصلتُ إلى هناك وكان مزدحماً أيضاً، فاتصلتُ بها.

[أنا في ركن المطاعم، هيا أخبريني أين أنتِ؟]

[يا لك من مستعجل!... أنا خلفك تماماً]

نظرتُ خلفي لأجدها أمامي ويا ليتني لم أنظر إليها.

كانت فاتنة حقاً، وهي بطولي تقريباً، عيناها بنيتان كالبندق، ولم تترك لوناً إلا ووضعته على وجهها الذي أصبح أجمل من الكون كله، وكأنها زهرة نادرة ولم يختطفها أحد سواي.

صرت أنظر إليها بذهول وعيناي تكاد أن تخرجا من مكانهما من شدة أعجابي بجمالها المصطنع.

قالت لي: [مرحباً...]

ومدت يدها لتصافحني، وكان صوتها أجمل بكثير من الذي كان في الهاتف.

صافحتها وملامحي لم تتغير: [أهلاً...]

[ما رأيك أن نأخذ جولة قصيرة في المركز؟]

[كما تشائيين...]

أخذنا نتمشى وكأننا مخطوبين، وتمنيت في ذلك الوقت أن يكون كذلك، ورغم أزدحام المكان، إلا أنني شعرته خالياً لا يوجد أحد فيه سوانا.

قالت لي: [أنت حقاً وسيم يا بدر... لا غرابة في أسمك إذن... أنت وسيم كالبدر بالفعل]

أحمرت وجنتاي من الخجل: [شكراً... هذا لطف منكِ]

[أخبرني عن حياتك يا بدر...]

قلتُ لها بدون تردد: [أنا إنسان عادي وطالب في كليات التقنية العليا... عمري ١٨ سنة وطموحي أن أصبح رجل أعمال كبير... وأعيش مع أختي في منزل واحد لأن أبواي قد توفيا... ماذا عنك يا... مهلاً أنا لم أعرف أسمكِ بعد!]

[لا داعي أن تعرف أسمي يا بدر... فأنا مجرد فتاة بلا طموح وكسولة في دراستها ومشاغبة أيضاً... أتعب والديّ معي في كل شيء... وأتمنى أن يصل من يشاركني حياتي بسرعة...]

فمسكت ذراعي وكأنني زوجها، فخجلتُ كثيراً منها، لقد كانت تتصرف بطريقة تجعلني أحبها أكثر وأكثر.

قلتُ لها: [سيصل قريباً إن شاء الله]

وصرنا نتحدث كثيراً وكأننا لن نسكت أبداً، ومضت الدقائق بسرعة حتى أتصلت بي سارة.

[ما الأمر يا سارة؟]

[لقد وعدتني أن لا تتأخر... وها أنت خارج البيت منذ ساعة]

[حسناً يا عزيزتي سآتي في الحال]

أغلقتُ الهاتف وقلتُ للفتاة: [لا بد لي من الذهاب فصديقي قد يصل في أي لحظة...]

قالت لي: [حسناً يا حبيبي... سأتصل بك الليلة، اتفقنا؟]

[بالتأكيد... أعجبني حديثكِ... وأنا أنتظر اتصالكِ في أقرب وقت]

[حسناً... إلى اللقاء...]

ودعتها وخرجتُ من المركز إلى سيارتي.

وفي أثناء طريقي إلى المنزل، كنتُ أفكر بالفتاة وكان فكري مشغول بها، لقد كان حديثها رائعاً وجمالها لا يوصف، وصرتُ أتسائل عن أسمها ونسبها وكيف عثرت على رقم هاتفي؟! لقد نسيت أن أسألها هذا السؤال، لقد نسيتُ كل شيء حيال ذلك.

وفجأة!! حدث شيء لم يتوقعه عقلي أبداً، لقد أصيب إطار سيارتي اليمنى وصرتُ أعرج، فخرجتُ عن الطريق لأقف عند الرصيف.

نزلتُ من السيارة لأرى العطل، فكان الإطار في حالة مؤسفة، لقد تمزق وكان يبدو مخيفاً، ولكن ماذا سأفعل الآن؟!... أنا لم أصادف مشكلة كهذه من قبل!... ماذا أفعل؟!

لو كان والدي حياً لأتصلتُ به ليتصرف، ولكنه في العالم الآخر الآن، فكيف سأتصرف؟!... يا إلهي سأتأخر عن البيت.

هل أترك السيارة هنا وأعود بسيارة أجرة؟! أم أتصدق بها على أحد وأشتري سيارة أخرى أفضل منها؟! ولكن أختي لن ترضى، إذ سيكون هذا تبذيراً مني.

ماذا سأفعل الآن؟! يا إلهي يسر من أمري... ربما إذا أتى محمد سيسهل الأمر، أعتقد بأنه أخبر عني بهذه المواقف.

وفي أثناء تفكيري، توقفت بقربي سيارة فيها مجموعة من الشبان الذين

بدوا وكأن أعمارهم في العشرين، نزلوا من السيارة، وكان عددهم ثلاثة

سألني أحدهم: [ما الأمر يا صديقي؟ هل من مشكلة؟]

أجبته: [في الحقيقة تعطل إطار سيارتي ولا أعرف كيف أتصرف في هذه المواقف]

قال آخر: [لا عليك... سنصلحها لك... فنحن أبناء هذا البلد]

قال الثالث: [وكأني رأيتك من قبل!... أنت طالب في كليات التقنية العليا أليس كذلك؟]

أجبته: [أجل... أنا كذلك]

سأل: [ما أسمك يا صديقي؟]

[أسمي بدر...]

[لا عليك يا بدر، سنساعدك]

سعدتُ كثيراً: [شكراً جزيلاً لكم]

سألني الأول: [هل لديك إطار بديل؟]

[لا أعلم إذا كان لدي إطار بديل أم لا...]

أخذ يتفحص السيارة وهو يتمتم: [سيارة فاخرة كهذه لا بد لها أن تكون مشحنة بإطار إضافي للطوارئ...]

سألني الثاني: [إن سيارتك مرتفعة الثمن... قد تتجاوز المليون درهم... قل لي ماذا يعمل والدك؟]

[رجل أعمال، حاولتُ الأتصال به ولكن هاتفه مغلق... فأنا لستُ متعوداً على هذه المواقف]

لم أرد أخبارهم أن أبي متوفي لأني إذا فعلتُ ذلك قد يعتقدون أني ضعيف، وأخرجتُ من جيبي السيجارة لأدخن.

قال الأول أخيراً: [لقد عثرتُ عليه أخيراً، إنه تحت السيارة... لا عليك يا صديقي بدر... سنعالج الأمر في الحال]

ولم تمضي سوى نصف ساعة حتى أصلحوا السيارة وكأنها لم تتعرض لأي شيء.

قلتُ لهم بامتنان شديد: [من دونكم ما كنتُ لأعرف ما سأفعله، جزاكم الله ألف خير]

أخرجتُ محفظتي، وصرت أحسب نقودي وأخرجتُ ٣٠٠٠ درهم إماراتي.

قلتُ لهم: [أعتبروا هذه النقود هدية مني لمساعدتي]

قال الثاني: [شكراً لك، ولكن ابتسامتك الشفافة هي أجمل هدية لنا]

قال الثالث: [نحن جميعاً أبناء زايد الخير الذي علمنا التعاون فيما بيننا]

قال الأول: [حسناً يا بدر... لا بد لنا من المغادرة الآن... انتبه لنفسك]

ودعتهم وركبت السيارة ورجعت إلى البيت وأنا أشكرهم في نفسي ولن أنسى هذا الفضل أبداً، في الحقيقة لم أكن أعلم بوجود شبان مثلهم في مدينة العين، ولكن الحمد الله على كل حال.

وصلتُ إلى البيت وكانت أختي في قمة الغضب، والساعة الآن الرابع عصراً، وصارت تؤنبني.

[أين كنت يا حضرة الأستاذ بدر؟!]

[لقد كنتُ في عالم الحب الصادق... الحب العذب... الحب الشائق]

[بماذا تهذي أيها الأحمق؟!]

صرتُ أقفز وأدور في مكاني واترنح يميناً ويساراً، ولقد كنتُ أشعر بأنني سأطير الآن فوق الغيوم وربما إلى القمر.

قالت سارة بغضب وهي تشد أذني: [قل لي في الحال ما الذي حدث؟!]

[حسناً سأخبركِ ولكن أتركِ أذني أنتِ تؤلمينني كثيراً]

تركت أذني وهي تنظر إلي بغضب: [أين كنت؟]

جلستُ على الأريكة البنية الفاخرة، وكانت النوافذ مفتوحة لتجعل ضوء الشمس يسلل إلى الصالة، وقلتُ لها: [عندما رجعتُ من موعدي إصيب إطار سيارتي وساعدني بعض الشبان الطيبين في إصلاح الأمر، وها أنا أمامكِ الآن]

[جيد أنك أتيت قبل وصول محمد، وإلا جعلك تندم على خروجك من المنزل]

[أعلم ذلك، فلا داعي لتذكيري بما حدث]

[حسناً... إذهب الآن وأشتري بعض من الأطعمة، فمحمد على وشك الوصول الآن]

[وما أدراكِ؟!]

[لقد مضت ساعتان على اتصالك به، فأين تتوقع أن يكون؟!]

[لا أعلم... ربما في المريخ...]

[كفاك سخفاً وهيا إذهب لتشتري بعض الأطعمة]

وقفتُ على قدمي وسألتها: [حسناً... ولكن ماذا أشتري؟!]

قالت لي: [أشتري فطائر اللحم والجبنة والزعتر ومحشي ورق عنب... ويستحسن أن تأتي بمشروب غازي أيضاً...]

[كما تأمرين يا سيدتي الكونتيسا ماريبيل...]

قالت بنفاد الصبر: [أوه... هلا توقفت عن الثرثرة الغبية يا سيرجيو؟ فصديقك أليخاندرو في الطريق...]

ضحكنا كِلانا ضحكة مرحة سعيدة ممزوجة بالود، وخرجتُ عندها من المنزل.

وصل محمد إلى البيت، وأدخلته المجلس، الذي كان فيه العديد من الأرائك المزخرفة والمريحة والسجاد الأحمر، أشعلتُ المصابيح ومن ثم سألني.

[ما هو الأمر المهم الذي جعلك تطلب مني القدوم إلى هنا؟!]

قلتُ له: [محمد... أنت صديقي أليس كذلك؟!]

[بالتأكيد أنا صديقك... وأنا أحبك كثيراً... أكثر من أخ]

[هل ستساعدني لو كنتُ في ورطة؟!]

[بالتأكيد... فشعاري في الحياة، الصديق وقت الضيق]

في الحقيقة أنا لم أكن أثق به أبداً، لا أعلم ما السبب، ولكن بعد وفاة والدي لا أملك القدرة على أن أثق بأحد، لأن كل تلك الممتلكات هي أمانة عندي.

قلتُ له: [هل أستطيع أن أثق بك؟!]

قال لي وقد عقد حاجبيه: [ما بك؟!... بالتأكيد تستطيع أن تثق بي!]

قلتُ له: [هل تعدني أن تكون صادقاً معي وأن تكون أهل تلك الثقة؟!]

قال لي وقد أدرك أن الأمر خطير: [أعدك وعد الرجال... أنا لا أخلف عهدي... سأكون عند حسن ظنك... ثق بي]

سألته: [ماذا تعرف عني يا محمد؟]

[أعرفك محباً للناس، ولطيف القلب... تحب أختك كثيراً وتهتم بأمرها، مجتهد في دراستك... و...]

قاطعته: [شيء آخر عني... شيء يختص بالثروة]

[لم أفهم...]

قلتُ له بجدية وقد دخلت إلينا سارة وهي تحمل صينية الطعام: [سأخبرك بكل شيء... أنا وأختي ورثنا الكثير من الممتلكات... محلات تجارية كثيرة، وحساب كبير جداً في البنك... ولو حسبت ممتلكاتنا كلها ستكون أكثر من خمسون مليون درهماً]

قال لي بتعجب: [لماذا تقول لي شيئاً كهذا يا بدر؟!... هل تقصد أنني طماع يا بدر؟!... وأريد صداقتك من أجل تلك القذارة؟!]

لقد بدا عليه الغضب والقهر، وقال لي: [بئس الصاحب أنت...]

قالت أختي: [نحن نريد أن نكتب كل تلك الممتلكات بأسمك يا محمد...]

قال بدهشة: [ماذا؟!... بأسمي؟!... ما الأمر؟!]

قلتُ: [هناك من يريد أن يستولي عليها... ولا يعلم كم نحن محتاجين لها!]

قالت سارة: [لقد زارنا عمي طلال وعمر وكان هدفهما الأستيلاء على كل تلك الممتلكات... ونحن نريد منك خدمة]

قلتُ له: [أرجوك... نحن نحتاج مساعدتك... سأكتب كل ممتلكاتي بأسمك حتى يبتعد عنا الأوغاد]

قال لي بتعجب: [ولكن على حسب علمي... إن الممتلكات كلها بأسمك فقط... إذن لن يتمكنوا من فعل شيء...]

قالت سارة: [أجل... سيتمكنون من الأستيلاء عليها لأن عمي طلال هو ولي أمرنا الآن]

قال: [ربما كان يمزح معكم فقط...]

قلتُ له: [يا ليته كان مزحاً... ولكنه جاد يا محمد لأن هناك خلاف بينه وبين أبي...]

سأل: [وما هو هذا الخلاف؟!]

قالت: [لقد كنتُ أعرف أن بينهم خلاف... ولكني لا أعرف ما هو بضبط وعن أي موضوع]

قال: [إذن هو يريد أخذ الممتلكات منكم ليجردكم منها!]

قلتُ له: [تماماً... وهو سيفعل المستحيل ليشردنا في الشوارع...]

قال بغضب: [إذن... يبدو أنه يريد تذوق طعم قبضتي... إن حاول فعل أي شيء... سأكون معكم ولن أسمح له بفعل أي شيء لكم]

قلتُ له كارهاً: [إذن... أنت موافق على كتابة الممتلكات بأسمك]

قال بكل ثقة: [بالطبع لستُ موافق...]

لقد شعرتُ براحة عظيمة، فأنا لا أثق بأحد أبداً.

قالت سارة: [أرجوك وافق... أنت ستنقذنا من هلاك مؤكد...]

قلتُ له: [لقد قلتَ أن الصديق وقت الضيق...]

قال: [ولكنني لا أستطيع فعل هذا... إن العرض كبير جداً وقد لا أكون أهل تلك الثقة يا بدر]

قلتُ له: [أنت لا تريد مساعدتنا يا محمد...]

[بلا أريد... ولكن ليست بهذه الطريقة... إن الأمر صعب...]

[لا... سأسجل خمسون مليون درهماً بأسمك فقط]

[أوه أجل... خمسون مليون درهماً فقط أيها البخيل؟!]

[ماذا؟!]

[كنتُ أمزح... عموماً أنا لدي فكرةٌ أخرى... وستنجح بالتأكيد...]

><><><><><><><><><><><><

الفصل السادس:-

وفي اليوم التالي، كنا أنا وسارة ومحمد الذي قضى ليلته معنا، نجلس في الصالة على الأريكة، والمكيف يعمل على درجة منخفضة الحرارة، وكانت المصابيح كلها منطفأة ما عدا مصباحان والساعة تشير إلى الخامسة عصراً.

لقد كنا نفكر بالذي سيحصل في المستقبل القريب، كيف سنتصرف إذا أتى عمي طلال وعُمر؟!... لقد كان محمد واثقٌ كل الثقة من خطته، وكان يمدني بالشجاعة والثقة، لم يكن مرتبكاً أو خائفاً أو حتى متردداً.

في الحقيقة أنا خجلٌ من نفسي لأني لم أثق به منذ البداية.

ودق الجرس...

وقفتُ أنا لأفتح الباب.

قالت سارة بارتباك: [أدخلهما إلى هنا يا بدر]

خرجتُ من الصالة إلى بوابة القصر، وفتحته لأراهما أمامي تماماً.

قلتُ: [السلام عليكم]

كانا عابسين وملامحهما قاسية، ولم يردا السلام إذ دفعني عمي طلال إلى الخلف ودخل هو وعمي عُمر إلى الصالة، ولحقتهم.

فتحا الباب ليجدوا سارة ومحمد يجلسان على الأريكة.

قال لهما محمد مستهزءاً: [تفضلا لا داعي للخجل... تصرفا وكأنكما في منزلكما]

قال عمي طلال: [من هذا؟! هل تجعلون للغرباء بالدخول إلى هنا؟!]

قلتُ له وأنا أغلق الباب: [تفضلا بالدخول...]

في الحقيقة، لقد كنتُ أتصرف بهدوءٍ تام، لأني أثق بما يفكر به محمد، وأشعر بأن خططته ستنجح.

جلسا على الأريكة المريحة الفاخرة، ثم قال محمد ويكاد أن يضحك: [ماذا تشربان؟! فكل شيء متوفر لدينا... هل تريدان أن أطلب لكما من المقهى القريب؟!... لكن بشرط على حسابكما]

عندما جلستُ بالقرب من سارة، قال عمي طلال: [لا أريد التحدث أمام الغرباء، لذا دعنا وشأننا، فنحن لا نعرفك]

قال محمد: [لا داعي لأن أذهب إلى أي مكان، لأن البيت بيتي]

قال عمي طلال: [ما الذي تقصده؟!]

قلتُ لهما: [إنه في منزلي، لذا فهو يتصرف وكأنه في بيته]

قال عمي عُمر: [كان منزلك... لذا عليك أن تتنازل لنا بكل شيء]

قال محمد: [كيف له أن يتنازل بكل شيء لكما وقد تنازله لي؟!...]

نظرا عمي طلال وعُمر إلي، فقلتُ لهما: [في الحقيقة، لقد طلب مني صديقي محمد أن أتنازل بكل ممتلكاتي له، وأنا في الحقيقة لا أقصر أبداً، لقد علمني أبي أن أكون كريماً وسخياً]

قالت سارة: [أبي كان رجلاً رائعاً ومحباً لجميع الناس، ولكن للأسف أنتما لا تستحقان أن تكونا أخويه]

قال عمي طلال: [عليكما أن تتنازلا بكل شيء وبسرعة قبل أن أفعل بكما ما لا يعجبكما، فلا تجبراني على فعل أي شيء سيء]

قال عمي عُمر: [وما هو دليلكم على أنكما كتبتما كل شيء بأسم هذا الفتى؟!]

أخذ محمد المستند الذي كان على الطاولة القريبة منه، وأخرج أوراقها ورماها عليهما وهو يقول.

[انظرا إلى هذه الأوراق يا زواري الأعزاء، ولكن في البداية قولوا "ما شاء الله"، لأن الحساد كثيرين في هذا العالم، وأنا أخاف على حلالي الجديد]

نظرا إلى الأوراق جيداً ثم قال عمي طلال: [إنها مجرد نسخ من الأصلية]

قال محمد مستهزءاً: [هل تعتقدون أنني ساذج لأعطيكم النسخ الأصلية؟!]

لقد بدا على عمي طلال الغضب الممزوج بالقهر والغيض، ويكاد أن يمزق الأوراق التي يراها.

قال محمد: [هل لديكما أي أعتراضات يا زواري الأعزاء]

أخذ يضغط على أسنانه بقوة، ولكنه قال بجدية: [ستجبراني على التصرف السيء، إن لم يتنازل هذا الفتى عن كل شيء في الحال]

قال محمد: [حقاً!!... دعني أرى ما الذي ستفعله، وأنا لن أتنازل أبداً... ولا أكترث بما سيحصل لبدر وسارة... فالمال هو كل شيء بالنسبة لي]

ابتسم ابتسامة خبيثة مفعمة بالمكر، حين قال: [سنغادر الآن... لأن البيت ليس ملكنا في هذا الوقت، ولكن قسماً لأجعلنكما متشردين في الشوارع... وسأحقق انتقامي المنتظر]

وقفا على قدميهما واتجها إلى الباب عندما فتح عمي طلال الباب نظر إلينا وهو يقول: [بالمناسبة، ستشهدان النهاية القريبة، وقد أعذر من أنذر]

أغلق الباب بقوة دليل على قهره.

قال محمد وهو يكاد أن ينفجر من الضحك: [لقد نجحت الخطة... وأعتقدا أنني حقاً مالك كل شيء]

ضحكت سارة أيضاً، وهي لم تصدق ما حدث، ولقد كنتُ سعيداً أنا أيضاً، ولكنني خفتُ من كلماته الأخيرة، يا ترى! ما الذي قصده بالنهاية القريبة؟!... عموماً لم أتوقع ما حدث... لقد أحسن محمد التصرف، كم هو رائع!

قال محمد: [حسناً يا بدر... علي الذهاب الآن، لقد تأخرت]

نظرتُ إلى عينيه البنيتين اللامعتين السعيدتين، لم أستطع شكره، فركضتُ إليه وعانقته معانقة قوية وقلتُ له: [لقد أنقذتني من جديد... لا يمكنني أن أشكرك أبداً، صعب أن أصف كم أنا ممتن لك]

ابتسم وهو يقول: [أنا في الخدمة دائماً يا صديقي... ولا تنسى أن الصديق وقت الضيق]

[لا يوجد صديقٌ مثلك في العالم، وخصوصاً في هذا الزمان]

[بلى يوجد، إنهم كثر يا بدر... ولكن تذكر، إن أحتجت إلى أي مساعدة فأنا في الخدمة]

قالت سارة له: [جزاك الله ألف خير يا محمد... لن ننسى وقفاتك معنا أبداً]

[المهم أنهما لم يكتشفا خدعة تزوير الأوراق]

ولم تمضي سوى لحظات حتى غادر إلى إمارة رأس الخيمة.

ومضت الأسابيع، والأختبارات على الأبواب، إذ لم يبقى سوى القليل، أسبوع واحد وتنتهي سنتي الأولى في الكلية، ولقد أخترتُ التخصص الذي أردته منذ بدايتي في الكلية ألا وهو إدارة الأعمال.

رغم أني أدخن بشراهة وأشرب كل ليلة، إلا أني والله الحمد جيد في دراستي، وأطمح للبكلريوس، وكان لوالدي دوراً كبيراً في ذلك، إذ أنه سمح لي بالالتحاق إلى معهد لتعلم اللغة الانجليزية بعد أن تخرجتُ من الثانوية العامة، لذا تحسنت الانجليزية لدي تحسناً ملحوظاً منذ التحاقي بالكلية.

وكنتُ كلما أعود من الكلية في الساعة الثالثة ظهراً تقريباً، وذهاب شقيقتي إلى الكلية من الناحية الأخرى، أتصل بالفتاة الغريبة.

وكنا نتحدث لساعاتٍ طويلة حتى المغرب، ولم أكن أذهب للمسجد أبداً، وبالرغم من أني أتحدث معها منذ أسابيع طويلة إلا أنها لم تخبرني عن أسمها الحقيقي حتى الآن!!

كنا طوال الوقت نتحدث عن الحياة حتى صار حديثنا يتداخل إلى الغزل والحديث اللذيذ، أعتقدتُ في البداية أنها طامعة في مالي وجاهي، ولكنني كنتُ مخطئاً، فهي لم تطلب مني أي شيء منذ حديثي معها، وكان شعوري تجاهها يزداد شيئاً فشيئاً، حتى أصبحتُ متيماً بها، وأفكر بها دائماً، حتى وأنا أتجرع الكحول.

في يوم الأحد، وقبل بداية الأختبارات بثلاثة أيام، كنتُ أتحدث إليها وأنا نائم على بطني في السرير.

قالت لي: [ما رأيك أن تأتيني إلى البيت غداً؟!]

[ماذا؟!... آتيكِ إلى بيتكم؟!... أرى أن هذا صعب]

[ألا تريد أن تراني يا حبيبي؟!]

[بلا يا حبيبتي... ولكن الأختبارات...]

قاطعتني: [عرفت... أنت لا تحبني... أنت تخادعني لأني فتاة مسكينة وساذجة...]

[كلا... أنا أحبكِ حقاً... أحبكِ كثيراً... أنتِ ملاكِ الذي يلاحقني خياله إلى أي مكان أذهب إليه]

[لا... لا تحاول... لن أصدقك]

[كيف لي أن أرضيكِ الآن؟!]

[أرجوك تعال إلي يا بدر غداً صباحاً... أنت لا تملك أي شيء لتفعله]

[أجل ولكن...]

قاطعتني من جديد: [إن كنت تحبني كما تدعي... أثبت لي ذلك... وتعال لتزورني في البيت]

صرتُ أفكر قليلاً، قلتُ لنفسي، لا مانع بأن أزورها في بيت والدها، سأكون عندها عدة دقائق وأغادر.

قلتُ لها: [حسناً كما تشائين... ولكني لن أمكث سوى بضع دقائق... اتفقنا؟]

قالت بسعادة: [أوه... سأكون في انتظارك... أرجوك تعال إلي الساعة السادسة فجراً]

[ولماذا آتي في هذا الوقت المبكر؟]

[حتى يكونوا نائمين، ولا يزعجونا]

[من؟!]

[والدي، وأخوتي... أنت تعلم أنني الفتاة الوحيدة بينهم]

[ماذا عن والدتك؟... أين هي؟]

[هي مطلقة منذ زمن... وتزوجت بآخر، ولم تفكر يوماً بأن تزورني]

[أوه... عموماً سأكون عندكِ الساعة السادسة، ولكنني لا أعرف أين يقع منزل والدك...]

[لا عليك، سأدليك أنا بالهاتف...]

وأنا في المرقص، صرتُ أدخن بدون أي شراب هذا اليوم، رغم الصداع الذي كان يخففه التدخين، أفكر بالذي سيحصل غداً، رغم أني أرى الكثير من الناس حولي، إلا أنني أشعر بأن المكان فارغ تماماً، فبالي مشغول بالحب الأول، بالفتاة التي أطمح بالزواج بها، فقلبي لا يتوقف عن تعذيبي، وكأنه يلح علي بالذهاب إليها الآن، يبدو أن الصبر قد نفد من صدري، لأني أتوق لرؤيتها الآن.

ومن شدة تفكيري بها، طلبتُ زجاجة كحول مشبعة بالثلج، ولكن الغريب في الأمر أنني لم أشرب منه سوى القليل هذه المرة... كل هذا حب؟!

وأخيراً، هذه هي أختي توقظني من النوم لصلاة الفجر، والساعة هي الخامسة والنصف، فصليتُ الصبح وتأكدتُ أن شقيقتي قد نامت، وأرتديتُ الكندورة بيضاء والغترة حمراء وخرجتُ من البيت وتحركتُ

بسيارتي حتى وصلتُ إلى الحي الذي يسكن فيه قلبي النابض، واتصلتُ بها.

[هاه... أين علي الاتجاه الآن؟!]

[حدد مكانك الآن حتى أجيبك]

[أنا الآن بالقرب من فيلا كبيرة لونها أبيض وعليها حجارة أردنية على شكل مربعات]

[عرفتُ الآن أين أنت... أنت قريب جداً من المنزل]

ثم أضافت: [تجاوز الفيلا لتجد شارعاً إلى اليمين، اتبعه وستجد بيتاً بنياً صغيراً...]

صرتُ أنفذ أوامرها حتى وصلتُ إلى منزلها، ولقد كان بسيطاً، ليس بمستواي أبداً.

خرجت من المنزل وكانت ترتدي أجمل ما لديها، ودعتني إلى المجلس، وكان عادياً جداً.

دعتني للجلوس، وجلستُ على الأرض لأنهم لم يكونوا يملكون الأريكة.

قالت: [سامحني... أشعر بأن مستوى المنزل لا يروقك...]

[كلا... لقد أحببته يا حلوتي]

جلست بقربي وقالت: [الوقت مبكر جداً... لذا لم يتسنى لي أن أعد أي شيء لك... آسفة على التقصير]

[يكفي أني أراكِ أمامي الآن يا حبيبتي]

ثم سألته: [سأسئلكِ للمرة الأخيرة... ما هو أسمكِ؟!]

وقفت على قدميها وأنا وقفتُ معها وتعجبتُ من وقفتها، ثم قالت: [سامحني، ولكنك غني وأنا أريد كل ممتلكاتك]

[ماذا؟!]

فأخذت تصرخ تطلب النجدة وكان صوتها يعلو كثيراً فدخل إلى المجلس

رجلاً مألوفاً... إنه عمي طلال.

لقد دهشتُ كثيراً وشعرتُ أنني سأموت الآن.

قال لي: [ما الذي تفعله هنا؟!]

قلتُ مندهشاً: [عمي طلال!!... مستحيل!!]

لقد كنتُ أنظر إليها وهي تتصنع البكاء وأنا أقول: [إذن أنتِ ابنة عمي...]

مسكني عمي من كندورتي حين قال: [ما الذي كنت تفعله مع ابنتي؟!]

[لم أفعل شيئاً...]

[لن تذهب إلى أي مكان... سأتصل بالشرطة ليأخذوك إلى السجن...]

عندها فهمت الفكرة، وعرفتُ الفخ.

فقلتُ له: [هذه هي خطتك إذن؟!... أن توقعني بتهمة من تخطيطك!!... خططت مع ابنتك أن توقعني في هذا الفخ القذر؟!... تبيع عرضك يا عمي؟!]

[أخرس...أفعل المستحيل لأحصل على ما أريده... والآن سأتصل بالشرطة ليأخذوك]

[أنا ابن أخيك الأكبر... أنا وسارة يتيمان بلا أم وأب ونحتاج من يقف إلى جانبنا... ألا تحمل أية ذرة رحمة؟!... أنت رجل بلا ضمير!!]

[الشبه الذي بينك وبين أخي كبير جداً... كم أكرهه!]

ثم صرخ بأسم ابنيه وركضت ابنته الغدارة إلى الداخل، واتى ولديه وهما أكبر مني بكثير ليمسكاني حتى تأتي الشرطة.

ومضت ساعتان، وها أنا في السجن لوحدي بدون أحد، بتهمة التسلل إلى البيت وتعدي على سكانه.

وقبل دخولي اتصلتُ بسارة وأخبرتها أنني في مركز الشرطة وأحتاج لرؤيتها، وهي الآن في الطريق.

وصلت إلي وهي تنظر إلى أخيها المحبوس بين قضبان السجن ودمعتها الثقيلة على خدها.

هرعتُ إليها: [إنها خدعة... لقد أوقعوني بفخهم]

قالت لي بصوت مخنوق: [لا أصدقك... أنت تكذب من جديد...]

[أقسم أنها خدعة... أنا بريء منهم...]

[حقاً! كيف لك أن تصل إلى منزلهم في وقت مبكر، هاه؟!]

أضافت بقسوة: [وكنت تريد مني أن أوافق على أحضار خادمة إلى البيت... لتعيد الكرّة... لتعيد ما فعلته منذ سنة ونصف... لتشوه سمعتنا من جديد]

صرختُ: [أنتِ لا تعرفين شيئاً... أنتِ لا تعرفين شيئاً...!!]

ثم أضفتُ لها: [إن كيدكن عظيم... أعظم مما تخيلته!]

قالت لي وهي تذرف المزيد من الدموع: [أوه حقاً!!... حجة مقبولة... أنا أعلم بأنك من خطط لذلك]

[لا تظنني ظن السوء... "إن بعض الظن اثم"]

قالت لي بجدية: [أنا لا أعرف أحد ليتصرف معك سوى محمد... إنه الوحيد الذي يمكنه أن يساعدنا في هذه المحنة]

[لا تتصلي به... لا أريد أن أتعبه معي أكثر من ذلك... أرجوكِ لا تتصلي به]

انصرفت عني لتتصل به حتى أنها تظاهرت بعدم الاستماع إلي، وجلستُ على الأرض وأنا متكئ على الجدار وعلى وشك البكاء، فالذي حدث معي لم يكن سهلاً، لم أشعر بخيانة كهذه من قبل، لقد كانت تسقيني من كلامها الدسم واللذيذ، لتوقعني في شباكها القذرة.

ومضت الساعات، وصار رأسي يؤلمني، وكأنه صداع لا مثيل له، والسبب في ذلك أنني لم أدخن منذ الصباح، ووضعتُ رأسي على الأرض، وأستلقيتُ على الأرضية الغير المريحة ودموع الأسى تنزل من عيناي، لعلي أشعر بالتحسن، ولكن دون فائدة، فالهم قد زاد، والغم قد أرتفع ضغطه، لا أملك سوى الدموع للتخفيف عن أوجاعي وتسكين آلامي، وألتآم جروحي العميقة، وكلما أتذكر ما حدث معي، أشعر بحقن الغدر والخيانة والكذب تتلذذ بتعذيبي.

وها هو محمد يقف أمام القضبان ينظر إلى حالتي.

قال لي بحزن: [لم أتوقع هذا الشيء منك أبداً... أبداً...]

لم أجبه، ولكنه أضاف: [كلما نخرج من مشكلة تدخلنا في مشكلة أخرى... هل تعجبك هذه اللعبة؟!]

لم أجبه، ولكن دموعي زادت كثيراً، وأنا مستلقي على الأرضية الصخرية القاسية، وكأنها تؤنبني هي أيضاً.

قال لي وقد مل من سكوني: [ألم تفكر بتلك المسكينة؟!... ألم تفكر بمصلحتك؟!... ألم تفكر ما الذي سيقوله والدك إذا كان على قيد الحياة؟!]

كل تلك الأسئلة كانت إجاباتها "نعم"... أجل لقد فكرتُ بهم.

صرخ: [عندما تخرج من هنا... سأكون أول من سيوسعك ضرباً ويقتلك!!]

قلتُ له بصوت مخنوق: [أقتلني... فأنا لم أعد أريد هذه الحياة الكئيبة... أقتلني يا محمد... إن قتلتني تكون قد خدمتني طول حياتي...]

قال لي: [أرأيت كم أنت أناني؟!]

سكون هادئ، ومن ثم أضاف: [تريد لنفسك الراحة... وماذا عن شقيقتك؟!... ماذا عن تلك الفتاة التي كانت ترى فيك الأب والأم؟!... ماذا عن تلك الصغيرة التي خاب ظنها بك؟!]

للأسف... لم أكن أملك أجوبة لهذه الأسئلة...

أضاف: [يا حسرتاه... ستكون بلا مأوى من دونك...]

ومضت لحظة سكون قاتل وكئيب، ولكنه قال: [عمك يريد الممتلكات مقابل التنازل عن القضية... وسارة وافقت على ما أشطرطه... لأنها تحبك... وستظل تحبك حتى آخر حياتها... وستتم الأجراءات هذا اليوم لأنه ولي أمركما بعد وفاة والدكما]

قال لي بعد سكوت: [عندها، ستأتون عندي... ستقيمون في منزلنا برأس الخيمة... شئت ذلك أم أبيت... فأنت لا تملك أية قرار... وأشطرتُ على عمك أن يمهلنا هذا الأسبوع لتنتهوا من الأختبارات أنت وشقيقتك... وتنقلون أغراضكما إلى منزلي]

لم أجبه، فقال قبل أن يغادر: [أنت مثير للشفقة...]

لقد ظُلمتُ... ظلموني وأنا بريء من كل أفكارهم، لا أصدق بأن أختي لا تصدق بأن هذا كله من تخطيط عمي طلال، صدق عندما قال لي بأني سأشهد النهاية القريبة... ويا لها من نهاية!

وأغمضتُ جفناي المشبعة بدموع القهر في السجن المظلم.

ومضت الأيام، وانتهينا من أختباراتنا، ولم يتبقى لنا سوى القليل من الوقت لنخرج من المنزل، وكان عمي طلال يجلسُ هو وولديه وابنته الخائنة على الأريكة الفاخرة، وقد أخذنا كل شيء خاص بنا، وكانت أختي سارة تبكي بشدة لأنها ستترك البيت الذي تربت فيه ثمانية عشر عاماً، وذاقت فيه المر والحلو... السعادة والحزن... والحب والحنان.

نملك أنا وهي ذكريات حميمة كثيرة تربطنا بهذا القصر، وها نحن نتركه الآن، وكانت تراني السبب الرئيسي في طردنا وتجريدنا من بيتنا.

صرخ عمي بصوته الأجش: [ألم تنتهوا بعد؟!... نريد أخذ راحتنا في بيتنا]

خرجتُ أنا وسارة من المنزل وكان محمد ينتظرنا في الخارج، لأنه لن يمسك أعصابه إن سمع أي كلمة من عمي أو ولديه، فقلتُ له أن يبتعد عن المشاكل.

ولكن وقفت أمام الباب خادمة فيلبينية وتحمل بيدها طفلٌ صغيرٌ، لم يتجاول عمره السنة، لقد تعرفتُ على الخادمة، وتمكنت أختي من التعرف إليها.

قالت الخادمة بالانجليزية: [مضى وقتٌ طويل... أليس كذلك؟!]

كانت خادمة جميلة جداً وشديدة البياض ترتدي ملابس فاتحة اللون، والطفل كان يشبهني كثيراً إلا أن عينيه كانت مثل عيني والدته.

سألتها سارة بملامح قاسية: [ما الذي أعادكِ إلى هنا؟]

قالت لها: [أريد التحدث مع بدر قليلاً...]

قالت سارة: [نحن سنرحل الآن... لا نملك الوقت للحديث معك...]

[لن أغادر قبل أن أتحدث معه على أنفراد... تعال قليلاً يا بدر]

مسكتني أختي وقالت: [لن تذهب معها...]

قالت لها الخادمة: [أقسم أنني أريد التحدث معه قليلاً... لن يكون سوى ربع ساعة فقط من وقتكم... الأمر في غاية الأهمية]

قلتُ لسارة: [دعيني أرى ما الذي تريده مني... ربما شيء مهم جداً كما تقول]

قالت ولم تتغير ملامحها: [حسناً... كما تريدان...]

ابتعدنا عن سارة التي ركبت سيارتها وأغلقت باب السيارة بقوة حتى كاد أن يُكسر.

وبعد أن أصبحنا على مسافة مناسبة، سألتها: [ماذا تريد الآن؟!]

[ولو!!... ألم تشتق إلي؟!]

[لا أملك الوقت لسخافاتك... أنتِ سبب كل شيء... سبب تخلخل علاقتي مع سارة]

[لا يهم هذا الآن يا بدر...]

[حسناً... تحدثي بسرعة... ماذا تريدين؟]

><><><><><><><><><><><

الجزء الثالث:-

إذا رمتك الأقدار بعوائقها الثقيلة، فتذكر أن لكل مشكلةٍ حل...

الفصل السابع:-

لم أكن أريد التحدث معها مطلقاً، لقد كرهتها كرهاً فضيعاً بعد فعلتها تلك، وجعلتني أسبح في بحر ذكرياتي القديمة المملة الكريهة، بعد أن خدعتني وجرتني إلى جحرها.

قالت لي وبكل برود مجيبة على سؤالي: [حسناً... لندخل في صلب الموضوع]

نظرتُ إلى وجهها القاسي رغم جماله، وقالت: [سأتزوج]

صمتُ قليلاً وضحكتُ، ثم قلت: [وما علاقتي أنا بزواجك؟!]

ابتسمت بلا مبالاة، وقالت: [سأتزوج من رجلٍ غني، وهو فيلبينيٌ أيضاً]

[حاولتي جر أبي إلى شباككِ من أجل نقوده، ولكنكِ فشلتي]

[أجل... حاولت لأن نقوده كانت غزيرة جداً... وكنتُ سأرث منه تلك الملايين...]

كنتُ سأسألها عن كيفية معرفتها بوفاة والدي، ولكنها قالت: [لا تتعجب من ذلك، لقد عرفتُ أنه مات... أليس والدك من كبار رجال الأعمال يا عزيزي بدر]

[لولا خوفه من الله... وإخلاصه لأمي المتوفاة لوقع في فخك]

[ولكني نجحت في جذب أحد أفراد العائلة]

[لا تحاولي أستفزازي... لستُ أنا من...]

قاطعتني: [لا يهم الآن، لا أريد فتح المجلدات القديمة]

[إذن لماذا عدتِ، هاه؟!]

[سأتزوج يا بدر... ألا تسمع؟!]

[وما علاقتي أنا بذلك؟!... أوه فهمت... تريدن أن تدعوني إلى حفلة زفافك... شكراً لا يشرفني القدوم]

[لا تكن أبلهاً... لستُ قادمة إليك من أجل هذا السبب... في الحقيقة لا يسعدني أن يأتي زفافي شخصٌ غبي وأخرق وساذج يخدع بسهولة]

لقد كنتُ على وشك تمزيقها ولكني قلتُ لها بنفاد صبر: [وما علاقتي أنا بزواجك؟!]

رمت الطفل الذي كانت تحمله إلي، وقالت: [طفلك سيهدم ما خططتُ له... إن عرف خطيبي أن لدي طفل من رجل آخر فسيفصخ الخطوبة]

[ماذا؟!... وما علاقتي أنا بهذا الطفل؟!]

[إن الدماء التي تجري في عروقه دماءك يا عزيزي... أحتفظ به فأنا لا أريده]

[أي إمرأة أنتِ؟!... أي قلبٍ تحملين؟!]

نظرت إلي بأشمئزاز حين قالت: [حسناً كن أباً حنوناً... ودعه يعيش عندك]

نظرتُ إليه ولكنه كان يبكي يريد أمه، وكان يحاول التخلص مني من أجل تلك الأم القاسية التي تخلت عن طفلها من أجل المال.

قلتُ لها: [هو سيدمر حياتي أنا أيضاً... سارة لن ترضى به!]

[أي من الرجال أنت؟!... ألا تملك السلطة على أختك؟!... أحمق!]

[لقد قدمتي كل هذه المسافة من أجل أن تتخلصي منه؟!]

[نعم... لقد كنتُ على وشك أن أرميه عند باب ملجأ الأيتام أو منزل معين ليعيش فيه... ولكنني فكرت، بما أن والدك قد توفي، إذن سيعيش عند والده الحنون]

[ألم تفكري به؟!... ماذا سيكون شعوره إذا عرف أن أمه تخلت عنه؟!]

[وكأني سأهتم!!... قل له أنها قد ماتت... ولن تتمكن رؤيتها...]

لم أرى إمرأة كهذه من قبل، رغم بكاءه الشديد وحاجته لها إلا أنها لم تشعر بالشفقة مطلقاً.

قلتُ لها: [أنا لا يمكنني الأعتناء به... عليكِ أن تتصرفي معه]

[حسناً... لدي فكرة... بما أن كلانا لا يريده]

أخذت الطفل من بين يديّ وتوجهت لأقرب منزل ورمته أمام الباب بقسوة، وبما أن الطفل غير قادر على المشي لأنه لم يكبر كفاية، لن يقدر على اللحاق بها، وغادرت المكان متجهة إلى سيارة الأجرة التي أستقلتها لتأتي إلى هنا، وكان الطفل في حالة يرثى لها، لم أحتمل بكاءه فأخذته من الأرض ولاحظ محمد وسارة الطفل بين يدي واتجهتُ إلى سيارتي الفخمة ووضعتُ الطفل فيه.

قلتُ لمحمد: [هيا لننطلق لا وقت لدينا لنضيعه في هذا المكان]

صرخت سارة: [ما الذي أعطتك؟... طفلها؟!... أعطتك ثمرتكما القذرة؟!]

لقد كنتُ في قمة قهري بسبب تلك الخادمة الساقطة.

فقلتُ لها: [لا شأن لكِ بذلك... هيا ننطلق فلقد مللتُ من هذا المكان]

ركبت سيارتها وسرنا نتبع سيارة محمد إلى إمارة رأس الخيمة بعد أن ملأنا كل السيارات بأغراضنا.

لم أكن قادراً على احتمال صوت بكاء الطفل الذي شعرتُ بأنه سيموت الآن، وكأنه يعرف ما فعلت به أمه القاسية، ولكن نظرة المجتمع؟!... نظرة المجتمع لهذا الطفل... كيف سيواجه المجتمع إذا عرف بأنه ليس سوى... ليس سوى... يا إلهي كم صعبة تلك الكلمة!!

ولكني والده... والد هذا الطفل الصغير... والد هذه الضحية... والد هذا المخلوق البريء... والد هذا البشري الذي لم يرتكب أي ذنب... فلماذا أحمّله حماقتي وقسوة أمه؟!

لن أدعه يعرف الحقيقة أبداً، لن أدعه يعرف سر والدته القاسية.

وكأنه جاء دوري في هذه الحياة، لقد تأثر والدي وحزن حزناً شديداً بسبب وفاة والدتي، ولكنه كان يرى فينا كل آماله وحلمه، فلم يكن يجعلنا نشعر بفقدان الأم أبداً، كرس حياته كلها من أجل أسعادنا.

وها أنا الابن... الابن الذي سيعيش كوالده، يضحي بكل شيء من أجل صغيره، من أجل زهرة حياته.

لم أتخيل يوماً بأن هذا ما سيحصل لي، كيف سأعرف والعلم كله بيده سبحانه؟!... سرحتُ أفكر وقد أشعلتُ لنفسي سيجارة، وسرتُ أدخن وأنفذ الدخان من النافذة حتى لا يستنشقه الصغير، وكأن الطفل قد سكت رغم أنه لا يزال يبكي وعيناه أصبحتا قرزميتين بسبب البكاء الشديد، وكانت عيناه الشرقيتين التي بدت وكأنها عيون اليابانيين أو الكوريين، ليته لم يقتبس تلك العيون لسهّل الأمر علي في تربيته، لأنه بالتأكيد سيسألني عن سر أختلاف عينه وعيني رغم الشبه الكبير بيني وبينه وبين والدي، فأنا أشبه والدي كثيراً جداً وجمال أمي قد زادتني وسامة، وهذا الطفل يشبهني رغم عيون والدته.

ولكن ما هو أسمه؟!... كيف لي أن أنسى تلك الساقطة اللعينة عن أسم الطفل؟!... هذا لا يهم كثيراً، فأنا أعتقد بأنها سمته أسماً سخيفاً مثل مايكل أو ميشيل.

وأخيراً هدئ الطفل، أعتقد أنه قد مل من البكاء أو أعتاد على الجو الجديد، مع أني لا أعرف بما يفكر به الأطفال، إلا أني أعتقد بأنه سيتأقلم معي وسينسى حنان أمه الذي كان حناناً قصيراً، ولكنه على الأقل شعر بحنان الأمومة.

كلا... لا أعتقد بأنه شعر بحنان الأمومة، لأن إمرأة قاسية كتلك الحقيرة بالتأكيد لا تملك ولا ذرة حنان.

أعذرني يا بني ولكني مضطر بأن أشتمها أمامك.

مسكتُ يده الصغيرة بعطف، فأخذ يلعب بأصابعي وكأنه أول مرة يرى يد آدمي، فأخذتُ أسأل نفسي... ماذا سأسميه؟!

عادل... لا، خالد... لا، أريد أسماً جميلاً يليق بغرابة عينيه، ولم أتوقع أن أختيار الأسماء أمراً صعباً قليلاً على فتى مثلي، ولكني بالتأكيد سأجد أسماً مناسباً له.

بما أن عينيه غريبتين عن عيناي، فسأسميه غريب... أجل غريب أسمٌ مناسبٌ له، هل أنت سعيد بأسمك يا غريب؟!... ليته يستطيع أجابتي على هذا السؤال.

اتصلتُ بمحمد: [أين نحن الآن؟!... أنت تعلم أنني لا أعرف شيئاً فأنا لم أقد خارج العين من قبل]

[نحن لا نزال في العين... سنصل إلى إمارة رأس الخيمة بعد أن نعبر إمارة الشارقة إن شاء الله]

[ولكن متى؟!]

[تقريباً ساعتان لا غير...]

[أنت تقصد سنتان...]

ضحك وقال: [لا داعي لكل تلك المبالغة سنصل فلا داعي للعجلة...]

أغلقتُ الهاتف.

كنتُ أريد الاتصال بسارة ولكنها لن ترد علي بسبب غضبها، أعرفها حق المعرفة، لن ترضى بوجود غريب بيننا لأنها ستكرهه بالتأكيد، ومن يعلم ربما تحبه حباً جما، وهذا ما اتمناه.

ومضت الساعاتان وقد وصلنا إلى رأس الخيمة، ويقول محمد بأن المنزل قريبٌ أيضاً، وخلال نصف ساعة وصلنا إلى المنزل الذي سنبقى فيه حتى يفرجها رب العالمين.

كان عادياً، بالنسبة لي أقل من عادي، فالفرق بين قصري وهذا الكوخ كبيرٌ جداً، إن بيت محمد واسع وكبير أيضاً وله مزرعة جميلة ولكن بدون زهور، فيها أشجارٌ فقط، ولكنه كان رائعاً.

ولقد أحبته سارة أيضاً، رغم أنها لم تعتد دخول مثل هذه البيوت التي بالنسبة لي كوخاً.

نزلتُ أنا من السيارة وحملتُ معي غريب، ومحمد وسارة نزلا أيضاً وعندما التقينا قال محمد وهو ينظر إلى غريب.

[هذا هو بيتنا... الجميع متلهف لرؤيتكما...]

كانت سارة خجلة جداً من محمد لأنها تعتقد بأننا متشردان فعلاً وأننا مثل المتسولين، ولكن الغريب أنها لم تعلق أبداً على وجود غريب بيننا.

قالت: [لقد تعبتُ من القيادة]

قال محمد: [سوف ترتاحين الآن... أعتذر لأنني أعيش بعيداً عن مدينة العين]

قالت: [لا تكن سخيفاً... يكفي أنك انقذتنا من الضياع المؤكد]

قال محمد الذي يحاول مواساتها: [لا... لا تقولي ذلك... قلوبنا أبواب بيوتٍ واسعة إن لم يعجبكم البيت]

ثم نظر إلي وقال: [أعلم بأن المنزل ليس بمستواكما... أعلم أيضاً بأن نفسكما لا ترضى بدخول بيت كهذا]

قلتُ له: [هل عرفتنا متكبرين ومغرورين يا محمد؟!]

لم يتحدث، بل لزم الصمت، فقالت هي: [علمنا والدي أن الغرور عيب... فلا تقل هذا الكلام مرةً أخرى أرجوك]

نظرت إلي بغضب: [ولكن المصيبة هي الذي يحمله بدر... البطل المقدام]

ثم سأل محمد: [حتى الآن أنتما لم تخبراني عن هذا الطفل... من هو؟!]

قالت له: [هذا هو زهرة نفسه]

[ماذا؟!... لم أفهم]

قلتُ: [لن أقول شيئاً... فمهما قلت لن يسمعني أحد... ولن يفهمني أحد]

قالت: [كاذب!... أنتم جميعاً هكذا أيها الشبان... لا تفعلون إلا الأشياء التي تروق لكم... وتبقى المرأة هي الضحية]

[لقد قلتُ وسأظل أقول بأنه لن يفهمني أحد... لن يفهمني أحد...]

أدرك محمد أنني لا أريد التحدث في هذا الموضوع من جديد، فقال.

[حسناً تفضلا بالدخول... وسننزل الأمتعة فيما بعد]

فتح الباب محمد ودخلت سارة التي كانت سعيدة جداً بوجودها بالقرب من سمية ونورة اللتان كانتا في قمة السعادة.

إما عني أنا، فقد أدخلني محمد غرفته بعد أن سلمتُ على أختيه وجدته، ولقد شاهدوا الجميع ابني غريب ولقد أحبه الجميع ما عدا سارة، لأنهم لا يعرفون أي شيء عن سر هذا الطفل.

جلسنا أنا ومحمد على الكرسيين الموجودين في الغرفة، وكانت جميلة بالنسبة لي رغم أن السرير كان قديماً ولون الجدران ذهبي لامع، والمكيف يعمل على درجة حرارة معتدلة، وحاسوب على الزاوية اليسرى.

سألني وهو ينظر إلى غريب: [هل أنت تعب؟!]

فأجبته: [لا... لماذا؟]

لقد حاولت سمية أن تحمله نيابة عني، ولكني خفتُ عليه من غضب وقهر سارة، ربما ستفعل به شيئاً، لما لا فالشيطان شاطرٌ جداً.

أراد سؤالي، ولكن أحدٌ ما اتصل به، وأجرى معه مكالمة قصيرة ثم أغلق الهاتف.

ثم سأل: [هل لي أن أعرف سر هذا الطفل؟!]

قلتُ له بحزن: [لا أحد يسمعني ولا أحد يفهمني... فلماذا أبوح بسره؟!]

قال: [أنا لم أرى هذا الطفل من قبل... فكيف وصل هنا؟!... ومن تلك الأجنبية التي تحدثت معها هذا الصباح؟!]

قلتُ له: [محمد... هل أنت صديقي؟!... هل أنت تثق بصداقتنا بكل ما من كلمة من معنى؟!]

قال لي وهو مدرك خطورة ما سأقول له: [أجل... أنا لا أخون أصدقائي أبداً... فأنا أحبكم جميعاً ولا يمكن لي أن أخون أحداً]

قلتُ له: [أعلم أنك لا تخون أحداً فصرتُ أثق بك كثيراً... ولكن...]

صرتُ أفكر، وسار خيال محمد بعيداً جداً، فمن نظراته لي عرفتُ أنه يحاول معرفة ما في داخلي، سر الطفل والخادمة.

قال لي: [بدر... أنت لست بخير... أنت متعب وتحتاج للراحة...]

قلتُ له وأنا على وشك البكاء: [أجل... أنا لستُ بخير... أريد أن أزيل خنجر الهم عن قلبي وأن أنزع سيف الغم عن صدري... لقد تحملتُ سنةً ونصف... ولا يمكنني التحمل أكثر بعد أن وصل هذا الطفل إلي... أريد أن أرتاح من الذل والظلم]

وهنا بالفعل أذرفتُ دموعي المكونة من القهر والحقد والخوف والغضب وسرتُ أنوح بشدة وأنا أمسح دموعي وأنا أقول.

[أن تُظلم من عمك أمرٌ قد يكون عادياً وطبيعياً... لكن أن تظلم من شقيقتك وأبيك هذا أمرٌ آخر يختلف كثيراً جداً]

قال لي بعزم: [دعني أكن طوف نجاتك من بحر همومك وأفرغ لي كل محتويات قلبك]

قلتُ له وأنا أثق به ثقةً عمياء: [أسمع... سأخبرك القصة كاملةً]

وصرتُ أحكي له القصة منذ البداية...

><><><><><><><><><><><><

الفصل الثامن:-

منذ ثلاث سنوات تقريباً، أحضر أبي لنا خادمة جديدة لتعتني بحاجات البيت، وكانت فاتنة حقاً، شديدة البياض، وعينيها حادتين بنيتين مذهلتين، ولم تكن مسلمة، لقد رحبنا بها كثيراً، وكانت تتحدث الانجليزية ولا تجيد العربية، وأسمها هو روث.

لقد كانت تعمل جيداً، تجيد الطهي والكوي والغسيل، ولم تكن تتأفف أبداً، أحببت عملها كثيراً، وكانت تظهر لنا الود، وصارت تعتني بأختي سارة كثيراً وكانت سارة تعاملها كأخت كبيرة لها.

لقد أحببناها وكانت بالفعل جزءاً من العائلة، ولم نكن نتخيل البيت من دونها أبداً، وكان أبي يشعر بالسعادة لأنها تمكنت بنجاح من جعلنا سعداء لفترة طويلة، وإينما نذهب ترافقنا، في الحقيقة نحن من كان يجبرها على مرافقتنا.

ومضت الأيام سريعاً، حتى أتانا الشتاء ومرضت أختي سارة، وأبي كان مسافراً إلى مصر بسبب العمل، وفي ذاك الوقت لم أكن قادراً على القيادة، فأعتنت بها روث كثيراً، ولم تكن تفارق سريرها أبداً، وكان دورها كبير جداً في شفاؤها.

في يومٍ من أيام الصيف، خرجتُ مع خالد وعمار للعب كرة القدم في قريتنا الكبيرة، والواسعة، وخرجت روث لترمي القمامة خارج البيت، وفرآها خالد وعمار.

قال خالد: [كم هي جميلة تلك الخادمة!]

قلتُ له: [نعم إنها جميلة بالفعل... ونحن نعاملها وكأنها جزء من الأسرة]

عمار: [إنها كالصاروخ الذي يطير ولا يعود... فلا أعتقد أننا سنراها من جديد]

قلتُ لهما: [أحمقان... لن تتغيرا أبداً... وتفكيركما هو الفتيات فقط]

خالد: [ألم تحاول أن تعاكسها يوماً يا بدر؟]

[ولماذا أفعل هذا؟!]

[تملك كل هذا الجمال في بيتك ولم تحاول يوماً أن تعاكسها أو تغازلها!!]

[أنتما معقدين جداً... قلتُ لكما أنها جزء من العائلة...]

عمار: [ولو... إنها تستحق حقاً العناية بها]

[لم أفهم... أشرح أكثر]

عمار: [أعتقد أنك لمستها يوماً... فأنت أغلب وقتك في البيت]

[أنا في البيت لأدرس... أنت تعلم أنني لستُ فاشلاً مثلكما...]

[أوه حقاً... تدرس!!]

[أجل... لم تبقى لي سوى سنة واحدة فقط لأتخرج من الثانوية]

[يا لك من ساذج...]

[ماذا...؟!]

قال خالد: [المتعقد في حياته هو الذي يدرس وكأنه سيصل إلى القمة...]

قال عمار: [الحياة حلوة... وممتعة... عليك أن تتمتع بالحياة وتعيش فيها وكأنك في نعيم]

كنتُ أراني خاطئاً، وهم الصائبون... ولكنني أخطأت... أنا الصائب وهم المخطؤون، واستمرينا بالحديث حتى وصولنا إلى الملعب.

وقبل بداية العام الدراسي بأسبوعين رجع أبي من مصر، وهنا بدأت روث بالتغير قليلاً، حتى أن أختي سارة قد أحست بتغيرها الخافت الذي كان بدون سبب.

تعمدت أن تجعل أبي يرى جزءاً من جسدها لتثيره، ولكنه كان يخاف من الله وكان شديد الأخلاص لوالدتي المتوفاة التي أحبها كثيراً جداً، ولم يكترث لها ولكنه حذرها من تعليمنا أو أرشادنا بأي شيء يخص دينها المسيحي.

وكان هدفها أصلاً هو الزواج من أبي من أجل ثراءه ونفوذه بين رجال الأعمال، وكل محاولاتها في أغواءه باتت بالفشل، فأستسلمت منه لتأتي إلي، وكنتُ في عز المراهقة في ذاك الوقت.

وأي حركة منها كانت ستجذبني بالفعل، ولكنها أكبر مني بأربع سنوات تقريباً، ولكن جمالها وجسدها المثير للأعجاب يجعلني انجذب إليها شيئاً فشيئاً.

ولكنني لم أكن أريد فعل أي شيء يخالف الشرع لأنني كنتُ أراها أختاً كبيرة وخادمة مخلصة ووفية، ولكن المال كان يحمسها لجعلها تقترب مني كثيراً.

وقبل بداية العام الدراسي بستة أيام، جلستُ في حديقة المنزل في ساعة السادسة صباحاً أترقب شروق الشمس لأن منظره يشعرني براحة عظيمة جداً.

رأتني في الحديقة وحيداً، فجلست بقربي وهي تقول: [صباح الخير...]

[صباح النور]

[هل نمت جيداً؟!]

[في الحقيقة لم أنم بل سهرتُ الليل بأكمله]

[وماذا كنت تفعل؟!]

[ألعب XBOX ... أنتِ تعرفين أني أحب اللعب بهذا الجهاز]

[يا إلهي... هذا سيضر بعينيك الجميلتين يا بدر... وأنت مع ذلك ترتدي النظارة]

[هل تريدني أن أتخلى عن اللعب؟!... إنها مسلية جداً يا عزيزتي]

مسكت يدي وصارت تداعبه بين أصابعها، وقالت: [ولكنني أخاف عليك... فأنا لا أملك سواك]

[ماذا؟!... لم أفهم]

وضعت يدي بين صدرها وأخذت تحتضنها بقوة، مما جعلني أشهر بشعور مخيف ولذة خطيرة، وكدتُ على وشك أن أعانقها، ولكنني سحبتُ يدي بسرعة كي لا أغوص في بحر مكرها.

سألتني: [ما بك؟!... لماذا سحبت يدك؟!... إنها دافئاً]

لم أستطع أن أقول لها شيئاً، ولكن ماذا كان سيفعل عمار إذا حدث له نفس الموقف؟! أو ماذا سيفعل خالد لو قفزت في أحضانه فتاة؟!

ولكنني لستُ مثلهم، فحاولت مسك يدي من جديد ولكنني تعذرتُ بحجة: [علي أن أرتب أغراضي... فالمدرسة على الأبواب]

[أنا سأرتبها لك... فلا داعي للقلق]

[لا... أنا أحب أن أرتبها لوحدي]

وقبل أن أغادر لمحتُ في عينيها نظرة غيض والرغبة للنيل مني، بالفعل كانت ذكية وتعرف ما تفعله، يا لها من ماكرة خبيثة!!

ولم يقف الحد إلى هنا، بل قبلتني عندما أردتُ المساعدة منها، مما جعلتني أغفو وأشعر بالخجل، ولم أفكر بأخبار أبي عن تصرفاتها أبداً، أعتقدتُ بأنها تمزح معنا كأي أخت كبيرة، يا لصغر عقلي!!

وفي الصباح، استيقظتُ من النوم وشعرتُ بعطشٍ شديد، فتحت الباب ونظرتُ إلى ساعتي... إنها الثانية صباحاً، خرجتُ إلى المطبخ لأرتشف الماء من البراد، فسمعتُ صوت أحدٍ ما قادم خلفي، فكانت روث، الخادمة الغريبة الأطوار.

سألتني: [ما الذي تفعله في منتصف الليل يا بدر؟!]

[لقد عطشتُ... وأريد شرب الماء]

[تقصد بأنك أتيت لتشرب الماء]

[أوه... أجل، يبدو أن النعاس قد افقدني التركيز]

[لا عليك... المهم هناك حقيبة كبيرة فوق الدولاب، هلا ساعدتني في انزالها؟]

لقد كانت في قمة اللطف والتهذيب، ولحقتها لأنزل الحقيبة.

عندما دخلتُ الغرفة تظاهرت بأنها تحاول انزال الحقيبة العملاقة، ما إن دخلتُ غرفتها الصغيرة ذو السرير المتواضع والفرش الأحمر الفاخر أكثر، حتى هرعت لأغلاق الباب بقوة، وعانقتني بسرعة.

تعجبتُ من تصرفها وصار جسدي يفور شيئاً فشيئاً، ودمي يزداد حرارةً، حاولتُ الابتعاد عنها ولكنها كانت بتشبثةً بي ولم أتمكن من منع نفسي أبداً.

لقد كانت الأقوى...

ولكن... ليت الأمر وقف هنا فحسب... لقد نمتُ على سريرها حتى الصباح، لأني كنتُ مرهقاً جداً، ففُتحَ الباب لترانا سارة على سريرٍ واحد، مما جعلها تفقد هدوءها وصارت تصرخ بقوة حتى أستيقظتُ من نومي لأجد نفسي في منظرٍ لا أحسد عليه.

لم تمضي سوى ساعة فقط، وطردت روث من المنزل بحاجياتها، إذ أبي لم يتصل بالشرطة لأنه أعتقد هو وسارة أنني أنا المذنب، وهي من دورها تظاهرت بالبكاء وقالت لهما أنني من كان يراودها عن نفسها، فصدقاها رغم كل محاولاتي بنفي ما قالته.

ورماني أبي في غرفتي وأغلقها وهو في قمة الغضب.

قال لي: [ما الذي فعلته؟!]

لقد كانت دموعي المظلومة قد وصلت إلى الأرض.

صرختُ: [أقسم برب السماء أنها هي من خدعتني وسحبتني إلى غرفتها]

[لا تكذب!!]

وهنا مسك بعقاله جيداً ليجلدني ويلهبني به حتى تمنيت الموت، وأنا أحاول الدفاع عن نفسي، وأبي لم يكن يريد أن يصدق ما حدث فكان يضربني بقوة.

وفجأة! سقط على الأرض وفقد توازنه وأخذ يتنفس بصعوبة، أعتقدته قد أكتفى بهذا من ضربي... ولكني كنتُ مخطئاً...

هنا بدأت معناته مع مرضه، لقد كان هادئاً لدرجة أنني بالكاد صرتُ أسمع تنفسه حتى أنعدم.

عرفتُ أن هناك شيئاً ما حدث له، حاولتُ أيقاظه ولكنه كان ساكناً

وكأنه ميت، فخفتُ كثيراً، أستدعيتُ سارة التي ركضت إلي مسرعة وعندما عرفت ما حل بأبي... صرخت.

[ماذا فعلت به؟؟؟!!!]

[لم أفعل شيئاً لقد سقط من تلقاء نفسه]

[ما الذي تنتظره؟؟؟!!! إذهب لأحضار المساعدة!!]

وركضتُ إلى بيت الجيران لطلب المساعدة الذين أتصلوا بالأسعاف عندما رأوا حال والدي الذي أصبح أزرق البشرة.

لقد كنا أنا وسارة في قمة الرعب، وكانت سارة تنظر ألي بأنني السبب الرئيسي لما حل به، وسارت تكره وجودي معها ولكنها مجبرة على ذلك.

خرج الطبيب، وقال: [لا تقلقوا إنه بخير... أغمي عليه فقط]

أرتحنا أنا وسارة من كلامه ولكنا رفضنا العودة إلى البيت، ولم يكن كلامه صحيحاً، لقد أصيب أبي بسكتة قلبية دل على ذلك أزرقاق جلده الأبيض، وسرعان ما تماثل للشفاء، ولكن إلى متى؟!

فبعد سنة ونصف تقريباً قد مات بسبب هذا المرض الحقير لأنه كلما يتذكر ما حل بيني وبين روث يزداد قهراً... وليته ما حصل.

وبعد أن حكيتُ لمحمد ما حدث، قال لي: [قصتك غريبةً جداً]

[أنا الآن سبب كل شيء... سبب موت أبي وقهر أختي، وطردنا من البيت وسبب ظلم غريب معي... فما ذنب هذا المسكين؟]

[على شقيقتك أن تتفهم]

[لا يمكنها ذلك... من الصعب لها أن تراني الأخ المثالي، رغم أن مشاكلنا قد أنتهت لتظهر مشكلةً أخرى]

[كم أنا مندهش!!... أريد تصديق قصتك ولكن صعبة]

[حتى أنت لا تصدقني؟!]

[من قال لك ذلك أيها الأحمق؟!... بالتأكيد أنا أصدقك، فقصتك تُخال من الخيال ولكنه الواقع]

[إن تلك الحقيرة سبب دمار عائلتنا... ليتها لم تأتي إلينا]

[لا أعرف ماذا أقول... ولكن لما لم تحضروا خادمةً غيرها]

[بعد أن مات أبي حاولتُ أقناع سارة بأحضار خادمة أخرى، ولكنها رفضت الفكرة رفضاً تاماً... فصارت تعتني بثيابي وطعامي وكل شيء لوحدها... وكانت ترفض مساعدتي]

[ولما كل هذه القسوة؟؟!!]

[كيف لها أن تحتمل ما حدث؟؟!!... فأنا لا ألومها... بل ألوم نفسي لأنني لم أمنع تلك الساقطة من اجتذابها لي]

[لا تلم نفسك كثيراً... ربما أختك ووالدك فهموك خطئاً... ولكن الحقيقة ستظهر يوماً من الأيام]

[ربما نعم... ربما لا...]

وحل الظلام، لقد كان محمد خارج المنزل إلى مدرسة الكاراتيه التي يحبها، وكنتُ أنا في غرفته، وغريب يبكي طوال الوقت... ولا أعرف مما يشكو... ربما هو جائع لأنه لم يأكل جيداً، وأنا لا أعرف كيف

اتعامل مع الأطفال، وهذه هي الكارثة، فدق أحدهم باب الغرفة.

ودعوته للدخول، فتحت الباب نورة الفتاة العمياء، وكان خلفها سمية وسارة.

قالت سمية: [إنه يبكي... هلا جعلتني أحمله]

[حسناً... في الحقيقة لا أعرف ما به]

[أنت لا تعرف شيئاً عن الأطفال... أعطني إياه]

ناولتها غريب وأنا أقول لها: [ربما هو جائع، ولم ينمو له سنٌ بعد]

سألتني سمية بتعجب: [ألم يأكل أو يشرب الحليب منذ الصباح؟؟!!]

[أعتقد ذلك...]

[هل أنت مجنون؟!... هل تريد أن تقتل الولد؟!]

سألتني نورة وهي متشبثة بالعصى: [ما أسمه؟]

[إسمه هو...]

قاطعتني نظرات سارة المتعجبة الممزوج بالقهر.

ثم قالت سارة: [ماذا سيكون أسمه يا تُرى؟!... الجحيم القاتم... أم ماذا؟]

غضبت منها سمية: [لماذا تقولين للطفل هكذا؟!... فما ذنبه إذا كان والده...]

نظرت ألي بتأسف، فنظرتُ للأسفل من شدة الخجل والعار، وهنا أدركتُ أن سارة قد أخبرتهم القصة التي تعتقدها صحيحة.

قالت سمية: [أنا آسفة...]

سارة: [لنخرج... هيا...]

قالت لي سمية: [لا تخف... سأعتني به... ولكن ما هو أسمه؟!]

قلتُ لها: [غريب... أسمه غريب...]

مسكت سارة يد سمية وغادرتا الغرفة إلا نورة التي كانت تريد أن تقول لي شيئاً.

قالت لي: [هل لي أن أجلس بقربك وأن أتحدث معك؟!]

[بالتأكيد... لا داعي للأستئذان لأن البيت بيتكم]

جلست بقربي وكأنها تبصر.

قالت لي: [إن ما قالته أختك لم يكن صحيحاً أليس كذلك؟]

[لا أعلم... لا أعرف ماذا أقول...]

[أشعر بأنك مظلوم يا بدر... ولكني لا أعرف حتى الآن سبب وجود هذا الطفل هنا]

[لقد تخلت عنه أمه فأخذته أنا... فهو مسكين... ما خطأه ليعيش كالمتشردين؟]

[معك كل الحق في ذلك... ولكنه لا يملك أية أثبات يدل على أنه ولدك]

[ما الذي تقصدينه؟]

[هل هناك ورقة تدل أن أسمه هو غريب؟]

[كلا... ولا توجد أية أدلة على أنه يحمل أسمي]

[وهنا تكمن المشكلة... فماذا ستفعل الآن؟!]

[لا شيء... سيعيش معي هكذا]

[هكذا بدون نسب!!... ولكن كيف سيكون حاله عندما يكبر؟!]

[لا أعلم... لا أملك أية فكرة]

[كيف ستبعثه للمدرسة؟!... كيف سيكون شعوره أمام أصدقاءه إذا أحس بالنقص؟!]

[أرجوكِ لا تسألي مثل هذه الأسئلة فهي مخيفة...]

[يجب أن تتصرف يا بدر... وإلا سيعيش هذا الطفل في جحيمٍ حقيقي]

لقد كان كلامها صحيحاً... إنه صغير الآن ولا يعرف شيئاً، ولكن ماذا سيكون شعوره عندما يكبر؟!

يا إلهي... كم هذا مخيف!... وعقلي غير قادرٍ على التفكير.

قالت لي: [هناك حل... حلٌ واحد لا غير...]

[حل!!... ما هو يا نورة...؟؟]

[ولكنه لن يكفي لأثبات النسب بين الناس...]

[إذن قولي لي ما هو الحل...؟!]

[عندما يصل أخي محمد... سنجتمع جميعاً بشأن غريب... والحل منطقي]

><><><><><><><><><><

الفصل التاسع:-

الساعة الآن الثالث صباحاً، وكان الجميع نصف نائمين إلا غريب الذي كان ملفوفاً بقماشٍ أبيض ناعم، والمكيف يعمل على أقصى برودة، وبدا على الجميع الأستعداد لتنفيذ فكرة نورة التي شرحتها لنا في الاجتماع، وبالفعل لم يكن لنا سوى هذا الحل، كان لا بد لي من الموافقة على هذا الحل وإلا لن يبقى غريب سعيداً أبداً.

إنه صعب علي أن أفعل ذلك، وأخاف أن تخفق الخطة، ولكن لا بد لنا من المخاطرة.

سأل محمد: [متى سنتحرك؟]

قالت نورة: [الساعة الثالث والنصف ستنطلقان]

فسألتُ: [ألا يوجد حل غير ذلك؟... أنا خائف]

محمد: [جميعنا خائفون... فأنا متوتر كثيراً]

نورة: [لما الخوف؟!... إن كل شيء سيسير بأمر من الله... ونحن نريد الخير للطفل فبالتأكيد لن يضيعه الله، فالأطفال أحبابه]

تطمأنتُ قليلاً رغم شعوري بالخوف والتوتر، وبالفعل لا يوجد حلٌ آخر، سننفذه قريباً، الله المستعان.

وبعد نصف ساعة، قالت نورة: [هيا أحملا غريب وتحركا بسرعة، وحذاري أن يراكما أحد]

قال محمد: [أجل... سنكون حذرين...]

حملتُ غريب النائم بين يدي، وقال محمد: [هيا بنا...]

وعندما خرجتُ من البيت أنا ومحمد، قلتُ لنفسي: [لا تقلق... كل شيء سيكون على ما يرام]

لم أكن مرتاحاً، وأتمنى من الوقت أن يمر سريعاً، وكنتُ أدعو من الله أن ييسر الأمر علي، لم أرغب برؤية وجه غريب خوفاً من التراجع، ولكنني عزمتُ على تنفيذ الخطة من أجله... من أجل سعادته.

وصلنا عند المسجد القريب من منزل محمد وهو مسجد أبيض كبير ذو منارة طويلة وقبة جميلة.

قال محمد: [هيا يا بدر... يجب أن تتصرف الآن]

أومأتُ إلى محمد على أني سأتصرف الآن، واتجهتُ إلى باب المسجد ولكن يدي توقفت عندما حاولتُ وضعه عند الباب فقلبي أصبع ينبض بقوة مخيفة حتى أني صرتُ أسمعه في أذني من شدة التوتر والخوف، فتشجعتُ ووضعته عند الباب وغادرتُ المكان متوجهاً إلى محمد وقد غرق وجهي بالعرق وانزلقت نظارتي إلى الأرض بسببه.

سألني محمد ونحن نتوجه إلى المنزل: [لما تأخرت عند الباب؟]

لم أكن أريد التحدث لأني على وشك البكاء على غريب، فأدرك محمد ما في قلبي، فالتزم الصمت.

عندما رجعتُ إلى البيت توجهتُ إلى الصالة مع محمد.

سألت سُمية: [ما الذي حدث؟]

محمد: [لقد وضعناه عند باب المسجد]

نورة: [جيد ما فعلتم... وأستعدوا للمرحلة القادمة...]

سارة: [كان عليكم أن لا تفعلوا ذلك به... ولكني أيضاً مقتنعة بالخطة]

نورة: [لا داعي للقلق... ستنجح خطتي أنا متأكدة...]

سُمية: [آملُ ذلك...]

جلستُ على الأريكة ولاحظ الجميع أن أفراز العرق لدي قد زاد، وكان محمد يشعر بالذي أنا أشعر به لأنه رأى صعوبة موقفي وقدّره، وصرتُ أفكر بغريب ولا أملك شيئاً أقلق بشأنه سواه، وسارت الأفكار السوداء تلعب بعقلي كثيراً وأتخيل أشياء مخيفة.

تخيلتُ غريباً يبكي ويطلبني، وتخيلتُ أن رجلاً ما أتى وأخذه بعيداً، وتخيلتُ أيضاً أن كلباً أتى وأكله، فقفزتُ من مكاني وأنا أصرخ.

خاف الجميع ثم قالت سارة: [لقد جن عقله...]

قلتُ بأصرار: [سأرجعه...!!]

أوقفني محمد وهو يقول: [انتظر يا بدر... ستفسد الخطة...]

ثم صرختُ: [لا أتحمل الابتعاد عنه لحظةً واحدة... هيا ابتعد عن طريقي!!]

قالت نورة: [أذهب وأحضره إذا أردت أن ترى عيونه دامعة أربع وعشرين ساعة... إن كنت تحب أن تراه يتعذب ويتألم من بطش الزمان أذهب وأحضره]

كان كلامها مخيفاً جداً حرك أصغر شعرة في جسدي، لم ترحمني في ذاك الوقت، ونظرتها لم تتغير أبداً، وكانت ستبكي لو لم تقل تلك الكلمات التي أرحتني.

قالت: [ستنجح الخطة... أنا أعدكم بذلك... أسمعوني ولا تقاطعوني... إني أرى أن سعادة غريب بهذه الطريقة، رغم أن عيوني لا ترى]

ثم قالت بعد صمت: [لا تخف يا بدر... كل شيء سيكون على ما يرام... إن الله لا يضيع من يحبه... لا يضيعه أبداً...]

قالت سارة: [معكِ حق... علينا أن لا نيأس من رحمة الله... إنه رحيم وسيلطف بغريب... ولا تدع الأفكار الشريرة تسيطر على عقلك... إنها مجرد كوابيس ووسواس الشيطان]

جلستُ على الأريكة من جديد ومسكتُ رأسي بقوة وأنا أنتظر المرحلة القادمة، وهو الأكثر أخافةً بالنسبة لي، وجلس الجميع في صمت ينتظرون أذان الفجر.

ومضت الدقائق ببطئ شديد جداً، وكنا جميعاً صامتين ولا أحد منا يريد التحدث، ولكني كنتُ أشد قلقاً منهم، لم أتوقع أن يحدث لي هذا أبداً، مع أني كرهتُ غريب في البداية لأنه الناتج المكروه لدى الجميع، ولكني أظن أن الله جعلني أحبه كي لا يتيه بسبب خطأنا... خطأي وخطأ والدته الساقطة.

وها قد أذن الفجر، فقالت نورة: [انتظروا حتى ينتهي أذان مسجدنا... ثم تنتطلقان]

محمد: [ولما لا ننطلق الآن؟!]

نورة بهدوء: [أستمع لحديثي ونفذه بدون أسئلة... مفهوم؟!]

محمد: [حسناً... لا داعي للغضب]

وانتهى الأذان سريعاً، وعندها خرجنا من المنزل وأنا في قلق وخوف اللذان لم يتخليا عني منذ البداية إلى النهاية.

عندما وصلنا للمسجد، وجدنا الكثير من الرجال متجمعين قرب الإمام، وعندما أقتربنا أكثر رأينا أن الإمام يحمل غريب وهو يبكي بقوة.

قال الإمام: [لا حول ولا قوة إلا بالله... ماذا سنفعل الآن بهذا الطفل؟!]

لم أحتمل ذلك أبداً، كنتُ سأبكي، فطلبتُ من محمد أن يتصرف بالنيابة عني.

قال رجل آخر: [علينا أرساله إلى دار الأيتام... هذا ما نستطيع فعله...]

قال ثانٍ: [أنا سأكفله... سأعتني به وكأنه جزء من عائلتي]

قال الإمام: [قال الرسول الله: أنا وكافل اليتيم في الجنة]

ثم قال الإمام بفرح: [جزاك الله خيراً... ويوفقك فيما تحبه وترضاه]

كاد أن يقف قلبي، بالفعل شعرتُ أن نبضي توقف، إلا أن محمد أسرع في القول: [لاااا، أنا من سأكفله...]

نظر إليه الرجل وقال: [كلا أنا من سأكفله... وأنت صغير فكيف ستكفل يتيماً؟!]

قال محمد والإصرار على عينيه: [أنا من سيكفله... إنه يتيم مثلي... وأعتقد أن والدته أو والده أحياء... وتخليا عنه]

قال الرجل: [هل تقصد أنه ابن الزنا؟!]

أرتعش جسدي، وقال محمد: [نعم بالتأكيد... الأب أو الأم رمياه عند المسجد لكي يتجنبا الفضيحة]

قال الإمام: [ماذا ستفعلون الآن؟!]

قال الرجل: [لا تقلق، أنا من سيتكفله...]

محمد: [لاا، أنا أريد أن أكفله... أختاي ستكونان سعيدتين به بالتأكيد]

قال الرجل: [لا تخف يا محمد، سأعتني به جيداً من أجلك]

محمد: [أنا مصرٌ على أخذه...]

وأخذ محمد غريب من يدي الإمام وتمسك به.

محمد: [أريد أكفاله من أجل روح والداي اللذان أحبهما... أريد أن أكفله من أجل روح أخي الذي لم أره يوماً... فلا تحرموني من التكفل به أرجوكم]

نظر إليه الجميع، وابتسم الرجل: [ولكنك صغير يا محمد... ولست قادراً على أكفاله]

هنا تحركت شفتاي بقهر لا إرادياً: [كلاا، لن أدعك تكفله أبداً**!!**... لا يحق لك أن تكفله أصلاً**!!**]

تعجب الرجل: [ماذا؟**!**]

ثم رجعتُ لوعي، فلم أعرف ماذا أقول، وتلعثمتُ في الكلام: [لاا... أنا... أنا أقصد أني... أنا أقصد أني أنا أيضاً أريد أن أكفله]

ضحك الإمام وقال: [يا لهذا الطفل المحظوظ**!**... الجميع يريد أكفاله]

قلتُ له: [أنا ومحمد سنعتني به... سأفعل المستحيل من أجله... فهذا الطفل قد ضاع بين أوراق الفضائح، لذا رُمي هنا... وأنا أريد أكفاله من أجل روح أمي وأبي المتوفيين]

ضحك الرجل وقال: [حسناً... تغلبتما علي... يمكنكما التكفل به... ولكن عداني بشيء واحد]

سعدتُ كثيراً، فقلتُ له: [قُل ما تريد... نحن في خدمتك]

قال: [إن أحتجتما إلى أي مساعدة في الاعتناء بهذا الطفل فلا تترددا]

قال محمد وقد ابتسم هو كذلك: [جزاك الله خيراً... شكراً لك]

الإمام: [خذاه إلى البيت الآن ومن ثم تكملان الأجراءات لكفالته]

غادرنا المكان أنا ومحمد ونكاد أن نطير من الفرحة.

قال الإمام بعد أن غادرنا: [ألا يشبه الطفل؟]

الرجل: [من؟]

[ذاك الفتى الذي يرتدي النظارة... ألا يشبه الطفل؟]

[معك حق... إنه يشبه الطفل كثيراً... ولكن الطفل يملك عيوناً كالصينيين... فلا أعتقد أنه يملك أية صلة به]

[ويحك... لقد خلق الله أربعين بفخارٍ واحد]

[معك حق... هيا لنقيم الصلاة]

عدنا إلى البيت وكدنا أن أطير من السعادة، لم أصدق... الأمر انتهى أخيراً، وكنا نشرح للجميع ما الذي حدث بالتفصيل، وكنتُ على وشك أن أقبل رأس نورة التي كانت سبب نجاح الخطة.

قالت نورة: [هيا أرجعوا إلى المسجد... لقد قامت الصلاة]

مسك محمد بيدي وطرنا إلى المسجد.

ومضت الأيام، ونجحنا أنا ومحمد في السنة الأولى لنا في الكلية، ولكنني نجحتُ بدرجات مقبولة، وكانت سارة بدرجات عالية جداً لقد أجتهدت وأستحقت هذا النجاح، ومحمد كانت درجاته أفضل من درجاتي، وقمنا بالاحتفال بهذه المناسبة السعيدة.

وبعد شهر تقريباً، وبعد أن تعودت سارة على غريب وصارت تحبه أكثر من نفسها وكأنه ابنها، عشنا حياة سعيدة، حتى أننا نسينا أمر مدينتنا الحبيبة العين، وأهلها الطيبون، لم نتشاجر يوماً، وكنا دائماً كل ليلة نجلس بقرب جدة محمد ونستمع إلى أجمل القصص والحكايا الشيقة.

لقد كانت تحبنا كثيراً وتعاملنا مثل أحفادها، وكنا أنا وسارة نحبها ونحترمها كثيراً، وصرنا نكره مغادرة غرفتها.

في الحقيقة أشكر شقيقتي سارة على كل شيء، لقد عودتني على عدم التبذير، رغم كل تلك النقود التي أمتلكناها إلا أنها كانت تمنعني من شراء أي شيء لا حاجة له.

لو كنتُ قد تعودتُ على التبذير فسأكره حياتي هذه كرهاً كبيراً، فالإنسان عندما يعتاد على أي طبعٍ سيء، فإنه لن يتركه بسهولة وكأنه جزء من دمه، وعائلة محمد من الطبقة المتوسطة، إذ ليس لهم المال الهائل الذي كنا نحصل عليه من ممتلكاتي السابقة.

ولكن قد يأتينا يوم ونزور فيه قبر والداي، أو نزور بيتنا السابق، فنحن يجب أن لا نيأس من هذه الحياة أبداً، علينا أن نكون أقوياء كي نتخطى الصعوبات كلها، وعلينا التصرف بحكمة وأن نفكر ملياً بكل خطوة نقوم بها.

وأصبح لي أصدقاء كثر في قرية محمد، وكنا نلعب كرة القدم في الملعب الذي قاموا بنشأته وكنا نتحدى بعضنا كثيراً جداً، ولم أكن أعلم أنهم بارعون في اللعب عندما لعبتُ معهم أول مرة، فجعلتهم يرون خبرتي الحقيقية في كرة القدم، فصاروا يختاروني للعب معهم عندما يحين وقت اللعب.

وكان بعضهم يدخن السيجارة مثلي، وصرتُ أطلب منهم السيجارة لأدخن معهم ولكني لازلتُ أشعر بالصداع كل ليلة بسبب عدم شربي

للكحول، ولكن السيجارة كانت تخفف الألم قليلاً، وسأتخلص منه يوماً من الأيام، وأكتشف محمد أنني أدخن، فصارحته بالأمر، وصارحتُ أختي سارة أيضاً عندما عدتُ إلى البيت، وغضبت كثيراً وكادت أن تضربني، ولكن محمد كان يقف إلى جانبي، ودافع عني، واتهموه بالتدخين هو أيضاً، ولكني برأته.

وعندما كنا نأكل الغداء –على الأرض- في غرفة الجدة، تحدثتُ معهم جميعاً على أن أقدم لطلب وظيفة حتى أساعد في البيت.

قلتُ: [أريد أن أقدم بطلب وظيفة في الاتصالات، فما رأيكم؟!]

محمد: [الاتصالات؟!... ولكن ماذا تملك من الشهادات؟!]

قلتُ: [الحمد الله... أنا أملك الـICDL وشهادة اللغة الانجليزية والثانوية العامة]

سُمية: [جيد... يمكنك أن تقدم بطلب... سيلبون بطلبك بإذن الله]

سارة: [ستقدم لطلب وظيفة شئت أم أبيت]

نورة: [ولماذا كل هذا يا سارة؟]

سارة: [ومن سيصرف على غريب؟!... إنه والده ويجب أن يصرف على ولده؟!]

ضحكت سُمية وقالت: [ولكننا نستطيع أن نعتني به دون أي مساعدة]

قال محمد: [أنت حُر يا بدر... أفعل كما تراه مناسباً...]

قلتُ لهم: [أرى أن أختي على حق... أنا رجل وعلي الأعتماد على نفسي لأجني قوت يومي]

غمزت سارة لي ولكني لم أفهم ما قصدته، فأشارت لي بكلمة على الانفراد، وبعد الغداء دعتني قليلاً وتعجب منا باقي الأسرة.

أدخلتها غرفة محمد ثم قالت: [أسمع يا بدر... حالتنا قد تغيرت... نحن لا نعيش على تلك الملايين التي تركها لنا والدنا... وأنا لا أستطيع أن أطلب النقود منهم دائماً... فأرجوك...]

قاطعتها: [أعرف ما ستقولين... ولكِ كل الحق في ذلك... أنا يجب أن أعمل لأوفر المال اللازم لنا ولغريب... يكفي أنهم قد ضمونا إلى أسرتهم وأمنوا لنا مكاناً بينهم]

[معك الحق... وأنا أيضاً أريد أن أعمل]

[لا يا سارة... أنا من سيعمل لأؤمن المال اللازم... فأنا مسؤولٌ عنكِ وعن غريب]

[ولكن قد يتأخر ذلك...]

[يجب علينا الانتظار... لا نملك شيءٌ ما نفعله]

[ماذا لو رفضوك؟]

[سأقدم في أكثر من شركة... وربما أقدم في شركات دبي أيضاً... حتى أحصل على وظيفة]

[عليك أن تراقبهم على الدوام حتى يوافقون على طلبك]

[لم أفهم... أوضحي أكثر]

[كل ما قصدته هو أن تجبرهم على الموافقة... أزعجهم باتصالاتك واستمر بزياراتك لهم واصر على الطلب... حتى يوافقون على طلبك]

[أليس هذا الأمر محرجاً قليلاً]

[إذن... سنبقى عالة على قلوبهم... أليس ذلك محرجاً أيضاً]

لم أستطع أن أتكلم، فوافقتها قائلاً: [كما تشائيين... وإن شاء الله سيتحقق كل ما نريده]

دُق الباب، ثم قلتُ: [تفضل...]

فتح محمد الباب وقال: [بدر... لقد أتى رجلٌ ما لزيارتك...]

[أتى رجل لزيارتي؟... من هذا الرجل؟]

سارة: [لا يعقل!... ربما عمي طلال]

محمد: [كلا ليس هو... لو كان هو لتذكرته... أو ربما طردته]

قلتُ لهم: [إذن من؟!]

سارة: [لما تسألنا؟!... إذهب وانظر من ذاك الرجل وماذا يريد... هيا بسرعة!!]

[لا داعي لكل هذا الانفعال يا سارة... سأذهب الآن وسأرى ماذا يريد]

قال محمد: [لقد أدخلته المجلس... إنه ينتظرك هناك]

[حسنٌ ما فعلت... سأذهب الآن لأرى من هذا الرجل]

محمد: [سأحضر الماء إليه... أذهب وأنا سألحقك...]

خرجتُ من غرفة محمد ذاهباً إلى المجلس، وكنتُ متحمساً لأعرف من هذا الرجل الذي أتى إلى هنا ليراني، وماذا يريد مني؟... هل يريد أن أكتب كل الممتلكات بأسمه؟!... ولكن عمي لم يترك لي شيئاً!!

اللهم أجعله خيراً...

دخلتُ المجلس، ووقف ليسلم علي وسلمتُ عليه.

قال: [أنت هو بدر بالتأكيد...]

قلتُ له: [أجل أنا هو بدر]

سحبني إليه ومسك وجهي بكلتا يديه وأزاح النظارة عن وجهي.

ثم قال مذهلاً: [ما شاء الله!... تبارك الرحمن!... أنت تشبه والدك كثيراً خصوصاً عندما كان في مثل عمرك!]

><><><><><><><><><><><

الجزء الرابع:-

بعد انتهاء مفعول دواء السعادة، لا تدع وباء التعاسة يصيب جسدك أبداً... أطرده بعيداً عن مخيلتك...

الفصل العاشر:-

تفاجأتُ... هذا الرجل يعرف أبي...!!

أبتعدتُ عنه وأنا أقول: [ماذا؟!... كيف لك أن تعرف أبي...؟!]

قال وهو يرسم ابتسامة على وجهه: [يبدو أنك لم تتذكرني... لا عجب في ذلك فآخر مرة رأيتكما فيها عندما كنتما في السادسة]

[من تقصد برأيتكما؟!]

[أقصدك أنت وسارة بالتأكيد...]

دعوته للجلوس، ثم جلستُ بقربه...

قال لي: [أنا صديق والدك يا بدر... لقد كنتُ أبحث عنكما طوال الشهر الماضي، حتى أخبرني عمك طلال أنك هجرت مدينة العين وانتقلت إلى هنا]

قلتُ له: [كلا أنا لم أهاجر مدينتي... بل أخرجوني منها غصباً]

[أعرف ما ستقوله... لقد كان والدك مع خلاف دائم مع عمك طلال... ولكنه لم يتغير... ولقد كان والدك يعرف أنه لن يترككما وشأنكما، بل سينتقم]

[أعذرني يا سيدي... ولكن من تكون أنت...؟!]

[أوه... أدعى مسعد... آسف لأني لم أذكر لك أسمي]

[لا عليك...]

فجأة!... تذكرتُ أنه قد مر علي هذا الأسم من قبل... عندها تيقنتُ أنه

بالفعل صديق والدي، لأنه يعرف عمي طلال... وبالتأكيد يعرف عمي عُمر أيضاً.

قال لي: [ما هي أخبارك الآن يا بدر؟]

[الحمد الله... كل شيء على ما يرام يا سيد مسعد...]

[لا تناديني بالسيد... أكره هذا اللقب...]

[إذن بماذا تريدني أن أناديك؟!]

[أي شيءٍ آخر غير سيد...]

[كما تشاء يا عمي مسعد]

[هذا أفضل... ومعذرةً على وقاحتي... ولكن هذا المنزل لا يليق بمقامك... فلماذا تعيش هنا؟!... أنا أعلم بأن والدك وضع كل الممتلكات تحت أسمك!!]

غضبتُ منه، ولكني لم أظهر له ذلك، وقد شعرتُ بالضيق، ثم قلت: [إن هذا المنزل المتواضع قد حضنني أنا وسارة، وأهله شديدوا الطيب والكرم... فهو يليق بمقامي... أحببته رغم أني مشتاق لأرجع إلى مدينتي... إلى بيتي وكليتي... لقد أفتقدتُ أهلها كثيراً... فيا ليتهم يعرفون ما حل بي]

قال بصوت هادئ: [هلا ناديت شقيقتك سارة يا بدر؟... أريد التحدث إليكما بمفردكما]

[كما ترغب يا عمي...]

خرجتُ من المجلس لأصادف محمد وهو يحمل صينية ماء، ودخل المجلس، فناديتُ سارة.

[هنا رجل يقول بأنه صديق والدي... يريد التحدث إلينا]

[قلت صديق أبي!... هل هو مسعد؟!]

[كيف عرفتي أسمه؟!]

[أحمق... لقد زارنا منذ زمن بعيد... ووالدي يتواصل معه دائماً لأنه رجل أعمالٍ أيضاً]

[لم أكن أعلم... أو ربما نسيت...]

[عموماً أين هو الآن؟! وكيف وصل إلينا؟!]

[إنها قصة طويلة... هيا تعالي بلا تأخير]

أعادت ترتيب شيلتها وتبعتني حتى المجلس، سلمت عليه وجلسنا بقربه، وهمستُ لمحمد الذي فهم أننا نريد البقاء لوحدنا.

قالت سارة بسعادة: [لم أكن أتوقع بأنك تبحث عنا يا عمي... كيف هي أحوال السعودية؟!]

هذا الرجل من السعودية إذن... لم أكن أعلم بأن والدي يملك أصدقاء خارج الإمارات، ولكن لما أتانا اليوم؟!

قال: [الحمد الله... كل شيء في بلدتي لا يزال على ما يرام]

سألته سارة: [لما أتيت إلى هنا يا عمي؟]

[أخبراني أولاً ما الذي حدث معكما؟!... ولما تعيشون في هذا المكان بعيداً عن دياركما؟!]

قلتُ له: [إنها قصة طويلة سأخبرك بها لاحقاً]

[لا... أريد معرفتها الآن...]

قالت سارة: [لقد نصب علينا عمي طلال وأخذ كل ما نملكه، ولم يرأف بحالنا، ولكن صديق بدر المقرب محمد فتح لنا بيته لنعيش فيه]

[هكذا إذن... ولكن كيف نصب عليكما؟!]

لم تكن سارة تريد التحدث أو تتذكر الماضي، لأنها لا تزال تعتقد بأني السبب في طردنا، فلو أخبرته أني قد سُجنتُ فربما يغضب ويعتقد بأننا قد ضعنا بعد وفاة والدي.

فقلتُ له: [لقد جعلني أوقع على الأوراق غصباً... وأبصم عليها]

تعجب: [كيف جعلك توقع على الأوراق غصباً؟!]

أجابت سارة بسرعة: [لقد هددني بالقتل...]

نظرنا إليها مندهشين، ثم أضافت: [لقد مسكني عمي عُمر وأشار بالسكين إلى رقبتي وهددني بالقتل إن لم يوقع بدر...]

ثم قلتُ: [وأنا لم أحتمل أن أرى دموع سارة، فلبيتُ طلبهما]

قال: [عندها طلبتما المساعدة من محمد]

قلتُ: [أجل يا عمي... وقد تأثر صديقي محمد وغضب من تصرف عمي وأستضافنا ببيته]

قال: [رغم أنه ليس بمقامكما]

نظرت سارة إليه حائرة: [ما الذي تعنيه بليس بمقامنا؟!]

[أنتما ولدا رجل أعمال شهير معروف بثروته الطائلة، فكيف وافقتما على العيش في هذا الكوخ؟!]

غضبت أختي منه، وقالت معاتبة: [لا أسمح لك بأن تقول عن هذا البيت الذي جمعني مع أخي بأنه كوخ... فهو أجمل ما في الكون بالنسبة لي

لأن أهله طيبون ورائعون... ولولاهم لكنا من أولاد الشوارع ولقد ساعدونا في محنتنا ولن ننسى هذا الجميل إلى يوم الدين]

قال بخوف: [هدءي من روعكِ يا آنسة... لا داعي للغضب... وأنا آسف]

[كان عليك ألا تقول بأنه ليس من مقامنا...]

[آسف... أعتذر إليكما...]

تنهدت سارة، وهو كذلك، لقد كنتُ أرغب بضحك عالياً من هذا الموقف... بالفعل عرفت سارة كيف تعاتبه... كيف لها أن تسكت عنه، فنحن عشنا هنا وأحببنا هذا المكان رغم بساطته... أو كما يقول... ليس بمقامنا، ولكني أرتحتُ كثيراً عندما رأيته يعتذر إليها... فأنا كنتُ أحتاج إلى أعتذاره لأبرّد قلبي من أقاويله.

وبعد فترة صمت، قال: [توقعتُ من عمكما أن يفعل أكثر من ذلك... كسجنكما مثلاً]

تأملته سارة قليلاً، ثم قال: [أنتما لا تعلمان ما سر الخلاف بين والدكما وعمكما طلال بالتأكيد]

قالت سارة بهدوء: [أجل لا نعلم... هلا أخبرتنا رجاءً؟]

قال: [بدأ الخلاف منذ عهد طفولتهما... لقد كان والدكما يبر كثيراً بوالديه، ويطيع أوامرها، وكانا ينظران فيه الأمل والسعادة، فقد كان ذكياً، ويحب الخير للناس، وكان المفضل بين أخويه عندهما.

فكان من عمكما أن ينوي له كيداً من شدة غيرته وحقده وكره له، وتولدت تلك الصفات فيه بسبب اهمال جديكما بطلال وعمر... وهذا هو الخطأ الجسيم وقع فيها والدكما ضحية بين حقد عمر وغيرة طلال.

وأول خطوة فعلاها هي حرق غرفته وهو نائم، ولكن لحسن الحظ لقد نجى من الحريق، ولكنه تعرض لبعض الحروق على جسده، ومع الأيام عرف أن أخويه كانا يخططان له شراً، وعرف أنهما من أفتعلا الحريق، ولكنه لم يخبر أحداً ولم يشكوا.

فحاول التقرب منهما، ولكن طلال وعمر كانا يكرهانه كرهاً شديداً، ولم يكن يحبا جديكما مطلقاً بسبب حبهم الشديد لوالدكما.

فكان مع مرور الزمن يكبر في عينهما كثيراً جداً، وقد حاول الأخوان قتله مراراً وتكراراً، ولكن الله لمخططاتهما عليم، وكان ينقذه في كل مرة يحاولان فيه قتله... فقد سمما شرابه وطعامه، وحاولا التهجم عليه بالسكاكين، ودمروا كل أغراضه... ولكنه كان يحتمل من أجلهما.

لقد كان يعذرهما، لأنهما لم يحصلا على الحنان الكافي من جديكما وقد أهملاهما كثيراً لأنهما لم يكونا مثله أبداً، فكانت حياتهما مليئة بالمصائب والمشاكل، وكان والدكما يحلها بذكاء.

ومع مرور الزمن، قرر والدكما الزواج بفتاة اختارتها والدته له، ولكن الأمر الذي لم يكن يعلمه أحد هو أن طلال كان يحب تلك الفتاة حباً جما، والفتاة كانت تبادله نفس الأحساس، وقد طلب طلال من والدته أن يتزوجها هو وليس والدكما، ولكنها رفضت طلبه، وقد أجبر والد فتاة بالزواج من والدكما، فتم الزواج... وزاد حقد وكره طلال لأخيه.

في الحقيقة، والدكما لم يكن يعلم بعلاقة طلال بالفتاة، لساعده على الزواج بها، فقد عرف ذلك متأخراً بعد أن حملت والدتكما بالحمل الذي لم يكتمل، فقد تعرضت لموقفٍ صعب، إذ سقطت من الدرج أثناء النزول، فمات الجنين... وتأثر والدكما كثيراً.

عندها تزوج طلال، وأنجب ولدان قبل والدكما.

ولكن والدتكما حملت مرة أخرى بكما بعد فترة طويلة جداً، وقد أحبت والدكما بسبب طيبه وأخلاصه لوالديه، وحب الناس له، ولكنها لا تزال تحمل الكثير من الحب في قلبها لطلال، فحاولت النسيان والابتعاد عنه، ولكنها لم تفلح، وبعد أن ولدتما بيومين ماتت أمكما.

وثار طلال كثيراً وتهجم على والدكما وحاول قتله، معتقداً أنه السبب في موتها، فزاد حقده على والدكما وحتى عليكما، وبعد فترة طويلة، تركته زوجته بسبب معرفتها بالحقيقة، وماتت بحادث سير مؤلم.

فلا تتعجبوا من كل هذا الحقد يا أولادي]

لقد كنا مذهولين أثناء سرده لقصة والدي مع عمي طلال، وقد كنا نشعر أنا وسارة بالشفقة على عمي طلال رغم كل ما فعله بنا، وأصبحت الرؤية واضحة لنا، وأخيراً عرفنا سر الخلاف بينه وبين والدي، ولكن والدي ليس له أي ذنب... الخطأ كله يقع على جدي وجدتي، لأنهما لم يعاملا جميع أبناءهما بالتساوي، مما أدى إلى كل هذه المصائب.

سألت سارة: [من أين لك بكل تلك المعلومات يا عمي؟]

لقد كان سؤالها في محله تماماً.

أجاب: [لقد كان والدكما يعاني من أخويه كثيراً، فكان يشكي لي كل همومه ومحاولاته في أرضائهما والتقرب منهما، وفحكى لي القصة كاملةً]

قلتُ له: [وما كان دور عمي عُمر في القصة؟]

[في الحقيقة، عمك عُمر كان همه الوحيد هي أرباح والدك، فقد كان يحسده حسداً لا مثيل له، وكان يتمنى زوال تلك النعمة]

سارة: [لذلك كان يقف مع عمي طلال كثيراً... يا له من جشع!]

كم هذا مخيف!... أمعقول كل هذا يحدث في عائلتنا الصغيرة؟!... حقد وكره وغيرة!!... يا للعجب!

لقد دمروا مستقبلنا وحياتنا، وألبسونا ثياب البؤس... ليس لنا أي ذنب فيما حصل بينهم... يبدو أن عمي طلال قد أرتاحت نفسيته كثيراً جداً.

أخيراً قد حقق انتقامه المنتظر، ولكن ألم يتحرك ضميره ولو قليلاً؟!... ألم يفكر أننا أبناء المرأة التي يحبها؟!... فأين ذهب كل ذلك الحب؟!... يا لهذه الدنيا العجيبة... أخوة يتقاتلون بسبب الغيرة، وقد حاولوا قتل والدي... قتل أخيهم الأكبر... أي زمنٍ كريه هذا تفعل بالمرء كل تلك الأفعال المتوحشة؟!

كلا... ليس الزمن الذي يفعل ذلك... بل الناس هي التي غيرت الزمن وأجبرته على الطغيان.

وبعد فترة صمت، قال مسعد: [حسناً... سأقترح عليكما اقتراحاً سيعجبكما بالتأكيد]

سارة: [كلنا لك آذان صاغية]

[حسناً... ما رأيكما أن تعيشا عندي في السعودية؟!]

دهشنا أنا وسارة، ولم ننطق بكلمة، ثم أضاف: [زوجتي وأبناءي سيكونوا سعداء بوجودكما...]

قلتُ له: [شاكرين لك حسن أخلاقك يا عمي... ولكننا لن نغادر بلدنا]

سارة: [لا يمكننا ذلك يا عمي... أرجوك سامحنا]

قال: [لا تستعجلا الأمر يا ولدي، فهناك كل ما تتمنانه، السيارات الراقية والقصر الفخم، والجامعات العالية المستوى، والحدائق الغنائة... كل ما تتمنيانه]

نظرنا إلى بعضنا حائرين لوهلة، ومن ثم قال: [فكرا بالأمر ملياً... وردا علي الخبر اليوم يا أعزائي... والأمر راجع لكما]

ثم أخرج بطاقة من جيبه: [هذه البطاقة تحتوي على رقم هاتفي]

قلتُ له: [سنفكر ملياً... ثم سنجيبك...]

لقد كان العرض مغرياً، فنحن إذا وافقنا على عرضه فسترجع حياتنا القديمة، ولأنه صديق والدي المقرب وبالتأكيد سيعتني بنا كأولاده، كان لا بد لنا من التفكير.

وبعد أن غادر عمي مسعد، أذن العصر، وتحدثتُ مع محمد في الأمر، ولكنه بدا حزيناً وكأنه متضايق، وعندما ذهبنا للمسجد كان قد تغير تماماً وكأنه يبكي بلا دموع، وصوته بدا مخنوقاً، عندها عرفتُ أنه لا يريدنا أن نغادر بيته، فقد كنا أكثر من أخوين، وملامح الحزن مغروسة بعمق في وجهه، ومهما يحاول تخبأتها فهو يفشل.

وبعد الصلاة، ناقشتُ الأمر مع أصدقائي الذين تضايقوا وحزنوا على هذا الخبر، رغم أني أكدتُ لهم بأنني لم أقرر بعد.

قلتُ لهم وكأني موافق: [في الحقيقة أنا أرى أن هذا الأنسب لي ولكم... ستتخلصون من وجودي أخيراً]

لقد كنا نجلس عند البقالة، وكان الجميع يشتري منها الشطائر والعصائر، ومن بينهم أنا، والشمس قد زادت من حرارتها قليلاً.

قال عبدالله الذي رمى بعامود السيجارة إلي: [لماذا تقول هذا الكلام؟!... سنحزن على فراقك بالتأكيد... فقد تعودنا على وجودك بيننا يا بدر]

قلتُ له بعد أن أشعلتُ السيجارة: [لا تحاول خداعي... أعلم بأن الجميع سعيد بهذا الخبر]

لقد كادوا أن يبرحوني ضرباً على تلك الكلمات، ولقد كنتُ أريد معرفة معزتي في قلوبهم، أو أين أنا في حياتهم، فلا بد من التلاعب بهم قليلاً.

قال صُهيب: [ستذهب إلى السعودية... هذا يعني أننا لن نقابلك مرةً أخرى]

قال عبدالرحيم: [أرجوك لا تسافر يا بدر... فنحن لا نريد فراقك]

قال عبدالله: [إذا كنت تعتقد بأن حياتك هناك ستكون سعيدة... أذهب، فلا يغرونك كلامهم... إذهب إلى سعادتك... فنحن لا نريد سوى ابتسامتك يا بدر]

قال منصور: [من سيلعب معنا كرة القدم؟... أنت من اللاعبين المهرة بيننا... يؤسفنا أن نفقدك...]

قلتُ لهم: [عبدالله يريد التخلص مني بأسرع وقتٍ ممكن... أما منصور فهو يريدني كي أتغلب على الفرق القوية بين المنافسات... لذا سأذهب]

ألتقط عبدالله صخرة صغيرة وقذفها علي وهو يقول: [سأقتلك...]

أما عن منصور فقال بقهر: [لما لا تشعر بنا أيها الحقير؟]

قلتُ لهم: [فراقكم شيءٌ صعبٌ جداً على قلبي... فقد أحببتُ هذه القرية وشعرتُ بأنني جزءٌ منها... وأحببتُ أهلها كثيراً... فلا أقدر على تحمل مآسي الفراق... كم هو صعب!]

رغم كلماتي العادية، إلا أنهم لم يشعروا بالراحة، وبعدها انطلقنا إلى الملعب لنبدأ المباراة.

وكان نفس الحال مع سارة، فسُمية ونورة وصديقاتها الجدد لم تعجبهم فكرة السفر والعيش في السعودية، وكانت على وشك البكاء، فقد بكين جميعاً من أجلها ولم تعجبها الرحيل هي أيضاً.

قالت بصوتٍ مخنوق: [لا أريد الفراق أبداً...]

قالت نورة: [لماذا تريدين الرحيل إذن؟!]

سارة: [لقد تركتُ بيتي مجبورة، وها أنا أخاف أن أجبر على فراقكم]

سُمية: [لن يجبركِ أحد... فأرجوكِ أبقي معنا ولا تهتمي للتكاليف...]

قالت صديقتها جميلة: [أرجوكِ لا تغادرينا... فنحن هنا جميعاً قد تعودنا على وجودكِ في قلوبنا]

لقد كنَ جميعاً في غرفة الجدة، لأنها تجلس وحيدة دائماً ولا تخرج.

قالت الجدة: [دعوها تذهب... ربما يكون خيراً لها]

قالت طيبة: [لا تقولي ذلك يا جدتي... لا نريدها أن تغادر أبداً]

ثم قالت مريم: [لن أدعكِ تغادرين... سأحبسكِ في الدولاب وأقفل الباب]

ضحكت سارة وهي تذرف الدموع، فعليها أن تقرر.

ثم قالت صديقتها زينب: [إن الحياة مستمرة... وبالتأكيد ستزورينا أليس كذلك؟]

وزاد بكاءها أكثر، وهي تنوح بصوت أعلى.

وفي المساء سألتني سارة عندما جلسنا وحدنا: [ماذا قررت يا بدر؟]

قلتُ لها: [ليست لدي أية فكرة... فأنا أرى أننا سنكون بخير أكثر هناك، ولن نكون عالة على أحد... مع أنه صديق أبي... إلا أنني عندما آخذ أكبر كمية من النقود، سنبني لنا بيتاً آخر]

[إذن أنت موافق على الرحيل...]

[في الحقيقة لم أقرر بعد]

[إذن ماذا؟!]

[أنتِ ما رأيكِ؟!]

[لا أعلم... أنا محتارة... ولكن إذا وافقنا... ماذا بشأن غريب؟!]

[أجل... لقد نسيتُ أمره كلياً!!...]

صمتُ قليلاً ثم أضفت: [لا يمكنني التخلي عنه... وهو حتى الآن صغيرٌ جداً... قد يكرهني إذا قابلته بعد أجلٍ مسمى]

[لا... لا أريد فراق أي أحد من سكان هذا البيت... إنه قرارٌ صعب]

[إذن... فالتسقط السلطة والنقود إلى الجحيم!]

[معك حق... ماذا أستفدنا من هذه النقود القذرة غير الأذى والحقد؟]

[رغم أن سكان هذه القرية معظمهم من الطبقة المتوسطة... إلا أنني كنتُ سعيداً معهم يا عزيزتي]

[معك كل الحق في ذلك... لا يهم ما سيحدث... لا أريد الذهاب... قررتُ البقاء]

[وأنا معكِ... قررتُ البقاء هنا... ولن أغادرها أبداً]

[حسناً... اتصل بعمي مسعد وأخبره أننا غير موافقين]

[كما تشائين يا عزيزتي]

اتصلتُ به، ومن ثم أخبرته: [مرحباً عمي... كيف حالك؟]

[أهلاً بدر... الحمد الله... ماذا عن صحتك؟]

[الحمد الله... عمي في الحقيقة...]

قاطعني: [أعلم... لا داعي بأن تكون حرجاً... لقد وافقت على عرضي]

[كلا يا عمي... أنا وسارة لم نوافق...]

[ماذا؟!... هل أنت مجنون؟!... تفوت على نفسك مثل هذا العرض؟!]

[قد أكون مجنوناً إذا غادرتُ بلادي... لن نغادرها]

[الفرصة تأتي مرة يا بدر]

[لقد قررنا... لن نغادر ولو كان هذا آخر شيء أفعله في حياتي]

أغلق الهاتف ولم يقل مع السلامة، يبدو أنه قد غضب... هذا لا يهم... نحن لن نغادر، وأخبرنا الجميع بالخبر السار.

><><><><><><><><><><><><

الفصل الحادي عشر:-

في أحد ليالي الصيف الصافية، ذهب الجميع إلى حفل زفاف صديقة سُمية إلا أنا ونورة، لأنني كنتُ متعباً ولم أستعد للحفلة، وهي لم تستطع الذهاب إلى الحفل لأنها عمياء، ولا تريد لأحد أن يشفق عليها.

كنتُ أجلسُ في الصالة على الاريكة أشاهد التلفاز، وهي كانت في غرفتها، ولكنها لم تكن تريد الجلوس وحدها فجلست عندي بعد أن تأكدت أن الجدة قد نامت.

جلست بقربي وهي تقول: [ما الذي تشاهده؟!]

قلتُ لها: [قناة دبي الرياضية...]

[ومتى سينتهي العرض؟]

[لا أعلم... إنها العاشرة ولم يرجعوا بعد...]

[أريد التحدث معك في شيء]

[ما هو؟]

[لا يمكنني التحدث وأنت تشاهد التلفاز]

[لا عليكِ أنا معتاد على التحدث أثناء مشاهدة التلفاز]

[ولكني لستُ معتادة على ذلك... هيا أغلق التلفاز]

أغلقتُ التلفاز، ومن ثم قلت: [وما هو الشيء الخطير الذي تريديني أن أعرفه؟]

[أنا لم أقل أنه خطير... ولكن هناك سؤالٌ يحيرني كثيراً]

[وما هو؟]

[أني خجلة ومتوترة... ولكن لا بد من أشباع فضولي]

نظرتُ في عينيها الحيرة وعدم القدرة على الحديث، لقد كانت تلعب بأصابعها كثيراً ووجهها يميل للحمرة، وهي تبدو وكأنها تنظر إلى الأمام في تفكيرٍ عميق.

قلتُ لها: [يمكنكِ أن تسألي ما شئتي، سأكون صريحاً في أجابتي]

قالت لي: [هل هذا وعد؟... ألن تتوتر أو تتراجع عن كلمتك؟]

[كلا... سأجيب بصراحة مهما يكون الأمر... لن أكذب ولن أتهرب... أعدك]

لقد زاد توترها، ولكنها سألت: [ما... ما هي علاقتك مع تلك الخادمة؟]

[أية خادمة؟]

[أم غريب...]

صدمتني بسؤالها، إذ لم أتوقع منها هذا السؤال أبداً، فقد أحترتُ كثيراً ولكني وعدتها بالصراحة، فلا بد لي من عدم التهرب.

قلتُ لها: [ماذا قالت لكِ سارة؟]

[أخاف أن تغضب... أو تنحرج]

[وعدتكِ أن أصارح بكل شيء... فصارحيني أنتِ أيضاً]

[حسناً... لقد قالت أنك...]

لم تكن تريد أن تكمل، ولكنها أكملتها مكرهه: [أنك تعديت عليها...]

[ما رأيكِ أنتِ فيما قالته؟]

[أشعر بأنها ليست الحقيقة... أليس كذلك؟]

نظرتُ إلى أظافري، فقلتُ لها: [هي تعتقد ذلك... تعتقد أني المذنب]

[فمن المذنب إذن؟... هلا أخبرتني القصة كاملةً]

أخبرتها بكل شيء، لم أترك لها شيئاً ولم أتفوه به، من دخول تلك الخادمة في حياتنا إلى أن مات أبي، فصدقتني رغم أني أعتقدتُ أنها كذبتني لأنها تعتقد أن جميع الشباب الذين في عمري مخادعون ويحبون التلاعب بالفتيات ذي العقول الساذجة.

قالت: [هذا كل ما حدث إذن... حقاً إن قصتك عجيبة!]

[حاولتُ عدة مرات أن أقنع سارة أنني بريء منما جرى... ولكنها مصرة على أني المخطئ... كم أتمنى أن تعرفني صادق!]

[وما الذي حدث بعد أن مات والدك؟]

[تعرفتُ على أخيكِ محمد عندما أتى إلى الندوة في كلية العين، ولكن حدثت معي أمورٌ أخرى]

[هل لي أن أعرف ما تلك الأمور؟]

[أخاف أن تكرهيني... ولكني أؤكد لكِ أن حياتي في العين قد أنتهت يا نورة]

مسكت يدي وكأنها تراها، أردتُ أن أسحبها، ولكنها فاجأتني.

قالت: [أنا لا يمكن أن أكرهك... أبداً]

أخذت تضغط على يدي بقوة، فقلتُ: [لقد ضعتُ بين الظلال بعد أن مات أبي وهطلت علي أمطار الملايين النقدية، وأخذ الجميع يحسدوننا حتى أصدقاء طفولتي اللذان خانا صداقتنا]

قالت لي: [كيف ذلك؟]

[لقد كنا نذهب إلى المراقص والأماكن المشبوهة يومياً و...]

لم أكن أريد أن أكمل، ولكني شعرت بالراحة، وكأنها تريد أن تسمعني وتشعر بآلامي ومعاناتي، فهذا ما أحتاجه، وسأظل أحتاجه.

قالت لي: [إذا لم تكن تثق بي... فلا داعي أن تكمل]

[كلا... أنا أثق بكِ وسأكمل...]

ثم أضفت: [لقد كنا نذهب إلى المراقص... وندخن ونرقص... أنا لم أكن أريد الأرتباط بهم أكثر، لأنهم كانوا يشربون الكحول، ولم تمر سوى عدة أيام حتى أدمنتُ أنا أيضاً على الكحول...]

ذهلت عيناها كثيراً واتسعتا، وأكملتُ: [ولكني تركتُ شرب الكحول بعد أن طُرِدنا من منزلنا من قِبل عمي... ولكني لم أقلع عن التدخين... حتى الآن]

قالت لي: [يا إلهي!!... أمعقول ما تقوله لي؟!]

[أجل... وسارة لا تعلم عن أي شيء]

هدأت... ثم قالت قبل أن أنطق أنا: [لا تخف... لن أخبرها بشيء... وهذا الحديث سيكون بيننا ولن يعرف به أحد سوى أربع أشخاص... أنت وأنا ورب العالمين والشيطان الرجيم]

لقد كان كلامها مطمئناً، والحمد الله على كل حال.

وبعد صمت قصير، اتصل محمد وقال لي أنه في الطريق الآن وسيكون في المنزل بعد نصف ساعة تقريباً لأن الحفل كان في إمارة الشارقة،

وبعد أن أغلقتُ الهاتف، قلتُ لها: [لقد كنتُ أحب فتاةً جميلة]

تغير ملامحها، ولكنها قالت:[أوه حقاً!... هل لي أن أعرف من هي؟]

أحمر وجهي، فقلتُ: [لقد تعرفتُ عليها بالصدفة... والغريب أنني أحببتها من أول نظرة، وهذا نادر ما يحصل في زمننا هذا]

[من سعيدة الحظ هذه الفتاة يا بدر؟]

[ولكنني أكرهها... أحتقرها... أريد تمزيقها بيدي... لقد دمرت حياتي تلك الفتاة]

[لقد حيرتني...]

[سأخبركِ القصة كاملةً الآن... ذات مرة دعتني إلى منزلها في السادس صباحاً، وعندما وصلتُ هناك صرخت، بقوة فدخل علينا عمي طلال...]

[ماذا؟؟؟... هل كانت ابنة عمك؟!]

[أجل... هي كذلك...]

[يا إلهي... ما الذي حدث إذن؟!]

[اتصل عمي بالشرطة ورموني في السجن بتهمة التسلل والتعدي، وعندما علمت أختي بذلك... لامتني لأنها تعتقد أني بالفعل حاولت الأعتداء عليها... كم هذه الدنيا قاسية!]

[حقاً... وكأننا في حلقة دائرية... ولكن لا تخف... رب العالمين سيبرئك إن شاء الله]

تنهدتُ بحزن مكبوت ودعيتُ من الله أن يأخذ حقي منهم، وأنا أتذكر أيامي مع تلك الحقيرة، التي باعت عرضها من أجل المال، مال أيتام لم يحمهم الزمن من براثن عمهم الظالم، الذي عانى في طفولته، ودفعنا

أنا وسارة ثمن معاناته، ولكن السبب الرئيسي في ذلك كله كان يعود إلى جدي وجدتي لأنهما فرّقا بين أولادهم، وهذا كان خطأ كبيرٌ جداً.

قالت لي نورة مقترحة: [ما رأيك أن نطلب من محمد أن يأخذنا إلى مدينة مدهش؟]

[فكرةٌ رائعة!!... سيحبها كثيراً]

[أتشوق لأرى ردة فعله... ولكن متى سنذهب؟]

[ما رأيكِ يوم الأثنين المقبل؟... سيكون جيداً...]

[سيوافق أخي بالتأكيد... وسنذهب جميعاً أيضاً...]

[سنستمتع كثيراً هناك...]

صمتت بحزن، فقالت لي وكأنها تتمنى: [أريد أن أرى وجهك...]

تعجبتُ منها، وأضافت: [أريدُ أن أعرف كيف تبدو يا بدر... لكنني لا أرى]

[لا تقولي ذلك أرجوكِ... هذا قدر الله]

[وأنا سعيدة به... سعيدة لأنني لا أرى... فلو كنتُ أرى لتعذبتُ كثيراً، لأني سأرى صورة لأمي وأبي المتوفين، وسأبكي، وسأرى الكثير يعانون من قسوة هذا الزمن، وسأبكي، وقد أرى أشياء لا أحبها... قد... وقد... وقد... لذا أنا سعيدة لأني لا أرى]

تفاجأتُ منها وقد كبرت كثيراً في نظري، كم هي عظيمة! إنها تدري في الحياة أكثر مني...

مدت يدها تحاول أن تلمس وجهي بأرتباك، وكانت ترتجف، فحطت سبابتها على أنفي، وأخذت تلتمس تقاسيم وجهي وهي تقول سبحان الله الخالق الصمد، وأنا كنتُ في قمة الذهول لأنها كانت تلتمسني وهي تبدو وكأنها تنظر للأمام، فمن مظهرها لا يبدو للناظر أنها ضريرة.

وبعد فترة ليست بطويلة جداً، وصل محمد، وكانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة، وقد بدا عليهم الأرق ويريدون الخلود للنوم، وهذا ما حدث فعلاً، كلهم قد ذهبوا للنوم، إلا نورة التي كانت تفكر في الحوار الذي دار بيني وبينها، وأنا كذلك.

وفي اليوم التالي، أخبرتُ محمد والباقين عن أقتراح نورة وهو الذهاب إلى مدينة مدهش للترفيه عن أنفسنا قليلاً، وقد أعجبوا بالفكرة كثيراً، وقررنا الذهاب يوم الأثنين.

بعد صلاة العصر، ذهبتُ مع أصدقائي عبدالله ومنصور وصهيب إلى الملعب لنلعب كرة القدم، ففي هذا اليوم سنتبارى مع لاعبي القرية التي بجوارنا، لقد سمعتُ أنهم أقوياء جداً وسيفعلون المستحيل للفوز، فهيهات هيهات، أنا لهم كحاجز يمنعهم عن النصر، لأني من اللاعبين الذين يكرهون الخسارة ولا أملك تلك الكلمة بين أوراق معجم حياتي، ولم تمضي سوى لحظات حتى بدأت المباراة، وكانت حامية الوطيس منذ بدايتها، وقد بدا عليهم البراعة والمهارة في هذه الرياضة، فبذلتُ ما بوسعي لأهزمهم فوجدتُ صعوبةً في ذلك، فكان لفريقي أن يخطط جيداً لهذه المباراة، ولكن هذا لم يجدي نفعاً معهم، وانتهت المباراة بهزيمتنا بخمسة أهداف مقابل لا شيء، إنها هزيمة ساحقة!! فكان لمنصور أن يتوعدهم بالفوز في المرة المقبلة، وزاد القهر لدي إلى أقصاه، فقد تعبتُ كثيراً في هذه المباراة، وكان سبب تعبي هو التدخين.

وفي يوم الأثنين، أستعد الجميع للذهاب إلى دبي، وقد انطلقنا بعد صلاة الظهر، فنحن نريد أن نصل إلى هناك قبل صلاة العصر، وتركنا الجدة مع الخادمة، ذهبنا جميعاً بسيارتي الفخمة، وكنتُ أنا السائق، وكان محمد في المقعد الأمامي، وأخذ بنا الحديث حتى وصلنا إلى الشارقة، وقد غلبنا الجوع فتوقفنا عند مطعم كنتاكي وتناولنا الغداء هناك ومن ثم استكملنا طريقنا إلى دبي، وقد تعبن الفتيات قليلاً فصمتن وغفون قليلاً، وكان غريب في ذلك الوقت في حضن سارة نائماً بهدوء، وبعد لحظات دخلنا في أزدحام شوارع دبي وكنتُ أكره الأزدحام كثيراً، أكثر مما يتخيله المرء، ولكني قاومته حتى وصلنا إلى مدينة مدهش.

قال محمد بسعادة بعد أن دخلنا إلى المبنى: [لم أدخل إلى هذه المدينة منذ زمن بعيد]

سُمية: [كان عليك أن تأتي بنا إلى هنا كل أسبوع]

قلتُ لهم: [نحن كذلك... لم نأتي إلى هنا منذ زمن... ولكن هيا نستمتع بوقتنا قبل أن يحل الظلام]

نورة: [معك حق... وأنا سأذهب معك إلى أي مكان... فأمسك عصاتي]

محمد: [ولكنه لن يتسلى بوقته إذا ذهبتي معه]

قلتُ لها: [كما تشائين يا نورة... يسعدني ذلك]

مسكتُ عصاتها وقلتُ لمحمد: [سنجتمع هنا جميعاً عند الساعة السابعة]

قال محمد: [سأذهب معكما...]

منعته نورة: [كلا يا محمد... أذهب لوحدك وأستمتع بوقتك... ودعني أذهب مع بدر... ومن سيعتني بسُمية وسارة وغريب؟!]

قلتُ لها: [لما لا يأتي معنا؟... سيكون هذا أفضل...]

نورة: [كلا... أريد الذهاب معك لوحدنا فقط...]

محمد: [حسناً... كما تشائين...]

قلتُ لمحمد: [لا تخف عليها فهي شقيقتي أنا أيضاً... سأعتني بها]

محمد: [شكراً لك...]

كانت مدينة مدهش مزدحمة كالعادة، فمن شدة روعتها لا يقاومها أحد ويتمنى زيارتها عدة مرات متتالية، فلا يمكن لأحد أن يمل من ألعابها ومطاعمها وفعالياتها.

لقد تعجبت من تصرفها، فلم أتوقع أنها تريد التنزه في المدينة معي، ولكني أعتقد أنها تريد التحدث، والغريب أن محمد يثق بي كثيراً، فلو كنتُ مكانه لما سمحتُ لأحد أن يتجول بمفرده مع أختي، ربما محمد كان يرانا جميعاً كالأخوة، وهذا ما يفرحني ويجعلني مرتاحاً، فلا داعي للقلق على سارة وغريب بما أن سُمية ومحمد معهما.

قالت نورة لي: [إذا كنت تريد أن تشاركهم متعتهم فيمكنك ذلك]

[كلا... أحب أن أتحدث معكِ كثيراً، فالدردشة معكِ مسلية أكثر من أي شيء آخر]

[شكراً على هذا الأطراء يا بدر، أشكر لك حسن نواياك تجاهي]

[نحن شقيقان يا نورة، أليس كذلك؟]

لقد بدا عليها الضيق قليلاً، وتغير ملامح وجهها، فردت: [أوه، أجل...]

[ما الأمر؟]

[هاه..؟ لا شيء لنكمل التنزه]

[إذن أين ابتسامتكِ الجميلة؟... لما مسحتها من على وجهك؟]

قالت بانفعال: [لما تهتم بابتسامة عمياء؟... فأنا مجرد عائق عليك]

[لما تقولين هذا؟... لا أريد سماع هذه الكلمة منكِ أبداً]

قالت بغضب: [أنت لا تعلم شيئاً...]

[لا أعلم ماذا؟... ما بكِ لما الغضب؟!]

صمتت ولم تتحدث، فتركتها وشأنها فربما أضايقها أكثر، ولكن نظري سقط على شيء لم أتمنى وجوده أبداً في ذلك الوقت، لقد كانت تقف تنظر إلى تماثيل رملية مع صديقاتها، ولكنها لم تنظر لي، إذ لم تراني.

قالت نورة: [ها هي أمامك... هيا أذهب لها]

يا إلهي!!... كيف عرفت أني أراها؟!... كم هي عجيبة هذه الفتاة!

شعرت منذ البداية أننا سنراها هنا، لذا قررت التجول لوحدنا، أو ربما كانت تعرف أنها ستأتي إلى هنا فاقترحت الزيارة إلى مدينة مدهش.

قالت من جديد: [ما بك؟... هيا أذهب إليها... أليست حبيبتك الخائنة؟]

وكأنها تستهزء بي، وتذكرني بالماضي، ولكن لما تقول لي هذا الكلام؟ ألا يجب لنا الابتعاد؟!

قلتُ لها: [لنبتعد...]

ولكنها منعتني ولم تتحرك، ثم قالت: [هيا أذهب إليها... دعها تجلعك تحبها من جديد]

><><><><><><><><><><><

Abdullah Hassan Ahmed... dante_uae@windowslive.com

الفصل الثانية عشرة والأخير:-

ما الذي تقوله هذه الفتاة؟!... تريدني أن أذهب إليها؟!... لما؟!

قلتُ لها أني أكرهها وأحتقرها بما فعلته بي... هل ترمي لشيءٍ ما؟!

قالت من جديد وهي تدفعني: [هيا دعها تنظر إليك يا بدر]

لا أعرف لما تريدني أن أراها، ولكني سأفعل.

قلتُ لها: [لما؟!... لما تريدينني أن أذهب إليها؟!]

قالت: [ألا تحبها؟؟.. هيا أذهب إليها..]

لم تكن بارعة في أخفاء ما في داخلها، لقد بدا عليها الضيق والغيرة والقهر، وأنا اتفرج في عينيها وكأني سأهرب الآن.

فسمعتُ صوتاً عن قرب: [انظرن من هنا... إنه الفتى الذي حدثتكن عنه]

لقد كانت تقترب منا مع صديقاتها الثالث اللائي لم يتركن لوناً ولم يضعنه على وجوههن، ولم يتركن خصلة من ناصيتهن إلا وظهرت، وكانت ابتسامتها الخبيثة تشع شراً.

قالت أحداهن: [إذن هذا هو بدر الذي كنتِ تخادعينه؟!]

قالت أخرى: [يا إلهي!! إنه وسيم حقاً... كم أحسدكِ عليه!]

قالت هي بأستهزاء: [مرحباً حبيبي... ومن هذه التي معك؟... هل هي حبيبتك الجديدة؟]

صرختُ في وجهها: [لا أسمحُ لكِ بأن تتحدثي عنها بسوء!!]

قالت بكل هدوء وأستهزاء: [هدئ أعصابك يا عزيزي لما الغضب؟... فهذا يجعلك قبيحاً كالسمكة]

ضحكن مقهقهات كالمهرجين، ومسكتُ قبضتي وكنتُ على وشك أن أضربها، ولكني في مكانٍ عام، ولا يجدر بي أن أفعل أي شيءٍ لها.

قالت نورة: [هيا أذهب معها... واترك عصاتي... أريد البقاء وحدي]

قالت أحداهن: [أنظرن إنها عمياء...]

قالت هي: [حبيبتك عمياء!!... يا إلهي!!... أمسك عصاتها جيداً... ربما تقع عليك]

ضحكن بسخرية، فأشرتُ بأصبعي السبابة، وقلتُ لها بغضب شديد: [إن تحدثتِ عنها بسوء مرةً أخرى... فسترين مني ما لا يرضيكِ... !!]

قالت بأستهزاء: [واااااي... أنا خائفة... أريد أمي... وااااااه سيغمى علي]

ضحكن من جديد، فقلتُ لنورة وأنا أحاول الابتعاد: [هيا لنبتعد من هنا يا نورة... فهن ضائعات في أرجاء الظلام...]

عندما تحركنا، قالت من جديد بكل وقاحة: [حبيبي... لا تتخلى عني أرجوك... لقد خنت حبنا النقي الطاهر وهجرتي...]

ارتفع الضغط لدي، ولكني تجاهلتها حتى لا أزيد الطين بله، لقد كنتُ أضغط على أسناني بقوة حتى آلمني، وشعرتُ بعصى نورة وكأنه سيتكسر من شدة الضغط على أصابعي، بالفعل لقد كرهتُ نفسي وكرهتُ المكان كثيراً وأريد الرجوع إلى المنزل، لم أعد أحتمل، حتى أني كنتُ أمشي بعجل ولم انتبه لنورة، وبعد لحظة توقفتُ عند أحد الكراسي بالقرب من بقالة صغيرة، وجلسنا أنا وهي.

قالت لي: [لم أسمع في حياتي عن فتياتٍ مثلهن!]

[لا عليكِ... لا تزال الدنيا بخير]

[لقد كرهتُ المكان... وصرتُ أريد الجلوس لوحدي]

[وأنا كذلك... لقد قهرتني... ليتني ضربتها]

[إذن... هل يمكنك أن تتركني هنا؟]

[ماذا؟... أترككِ هنا؟!]

[أرجوك... أريد البقاء لوحدي...]

[لما...؟...]

بكت... رأيتُ دمعة ثقيلة معلقة بين جفنيها، وشفتاها ترتعشان، إنها حزينة لأنهم تحدثن عنها، حزينة لأننا لم نستطع أن ندافع عن أنفسنا، حزينة لأنهن قللن من شأنها وأستهزؤا بي، حزينة لأنها لم ترد عليهن بكلمة واحدة... تحمل في قلبها حزناً وقهراً وغيضاً وحقداً على تلك الفتيات الوقحات اللائي ضعن بين أجنحة الحياة... وبالتأكيد مصيرهن واحد، بما أنهن دخلنا في الرذيلة فلن يخرجن منه إلا إذا حملوا بقلبٍ طاهرٍ نظيفٍ يعرف معنى الألم، والأحساس، والهم، والغم، والمشاعر، وطعم الدموع.

دفعتني نورة بقوة وهي تقول بصوتٍ مخنوق: [دعني وشأني...]

فهربتُ من براثن مشاعرها بسرعة لأبحث عن أحزاني أنا أيضاً، فمن السهل أن نجرح أحدٌ ما، ولكن من الصعب أن نشعر بآلامه وجروحه إلا إذا عانينا كما يعاني هو.

أخبرني إيها القلب... كم من جرحٍ تحملته كل تلك السنين؟!

أجيبيني أيتها المشاعر... كم من خنجر غدار طعنكِ على مر السنين؟!

حدثيني أيتها العين... كم من دمعة نزفتي طول هذه السنين؟!

قل لي أيها الهم... كم من جريح عذبته خلال تلك السنين؟!

أسمعيني أيتها الأحاسيس... كم أبرة وخزتكِ حين كنتِ تحلمين؟!

صارحيني أيتها الكلمات... إلى متى ستظلين تشفين الجروح وتجرحين؟!

أرحني أيها الضمير... لما تستيقظ دائماً في كل جسدٍ حزين؟!

ولا تستيقظ في كل جسدٍ مشين؟!

ولكني أسمع صوت أحد يناديني، صوت غريب يناديني من داخلي يقول لي... لا تيأس من الحياة... هناك دائماً الحزن والسعادة... لا يمكن أن تشعر بمعاناة الآخرين بدون حزن... ولا يمكنك أن تفرح لشيء بدون السعادة... عليك أن تفكر كثيراً حتى تجد طريقك المفقود... طريق مستقبلك... لقد غدر بك الزمان كثيراً... وضعت في محتواه عدة مرات... ولكني موجود... موجود لأنقذك من بحر أفكارك السوداء ومحيط حزنك الداكن... لا تجعل كلمة اليأس تدمر حياتك أكثر... لا تجعلها تلعب بين بساتينك وتحرقها... إذا أردت الخروج من كومة الأحزان والتعاسة فعليك أن تجدني أولاً... أنا موجود في داخلك ولن أخرج منه أبداً... حتى تعثر علي... وتحررني من قيود اليأس الذي يسيطر عليك... أنا الأمل...

أجل... إنه الأمل... رغم أزدحام المكان بالناس إلا أني لا أسمع أصواتهم... إن أسمع صوت الأمل وهو يناديني لعدم اليأس...

إذا جعلتُ حزني وألمي يسيطر على عقلي وقلبي فإني سأبقى حزيناً ومهموماً إلى الأبد، ولكن هناك لا بد لي من أن أضحك في وجه التعاسة ليموت قهراً كما متُ أنا... إن الحياة مستمرة بأحزانها وأفراحها... رغم أن تجربتي في الحياة علمتني أن أحزن حتى أشعر بطعم السعادة وأستمتع به، وأن أرى أمامي دائماً ولا أنظر للخلف حتى أقهر الصعاب واليأس.

آآآآآآآآآخخ... ما هذا؟!

وكأني أرى نجوم الظهيرة... فقد أصطدمتُ بعمود حديدي، وآلمني رأسي، لقد كنتُ أعيش حلماً غريباً، فعندما رجعتُ للواقع شعرتُ بالسعادة... لأن الحياة قد عادت إلي من جديد... وفهمتُ أشياء كثيرة... فكيف لنا أن نرتشف بالسعادة إذا لم نتجرع الحزن...

[أخيراً عثرتُ عليك...]

[من؟... محمد؟؟]

[أجل إنه أنا والجميع معي...]

ثم لحظات حتى وصلت سارة وسُمية التي سألت: [أين هي نورة؟!]

تذكرتُ أنني تركتها وشأنها: [هممم... قد طلبت مني أن أتركها وشأنها...]

سارة: [ماذاااا؟؟؟... كيف لك أن تتركها وحدها؟!]

محمد: [وأين هي الآن؟؟... أين تركتها؟؟]

قلتُ لهم: [هيا لنذهب إليها... إنها تجلسُ بالقرب من البقالة]

ولكن عندما ذهبنا هناك... لم نجدها... يا تُرى إلى أين ذهبت؟!... كيف لها أن تتحرك من مكانها وهي ضريرة؟!

محمد: [أين هي يا بدر؟؟؟]

[لا أعلم!!... لقد كنا هنا... وطلبت مني أن تبقى لوحدها...]

خافت سُمية: [يا إلهي!!... أين يمكن أن تكون قد ذهبت؟!]

سارة: [أسمعوا... سنبقى أنا وسُمية هنا... وأنتما ابحثا عنها...]

لقد ركضتُ بسرعة وأنا أبحث عنها في كل مكان، ومحمد كذلك، ظللتُ أبحث عنها كالمجنون... فأنا السبب في فقدانها الآن... ولا يمكن أن أرتاح حتى أجدها قبل محمد لأعرف لما فعلت ذلك؟!

لم أترك شبراً في المدينة إلا وبحثتُ فيه عنها... وزاد الخوف في صدري وصرتُ أسأل الناس عنها فربما شاهدها أحد... ولكني شاهدت فتاة تحمل عصى بالقرب من حمامات الرجال... فتعجبتُ!

ثم سألتها: [أين كنتِ؟! لقد قلقتُ عليكِ كثيراً...]

[أوه حقاً... ألم تقلق على حبيبتك القديمة؟!]

[لا تكوني سخيفة... وهيا بنا إلى المنزل... الجميع ينتظرنا]

[لا... لن أتزحزح عن هذا المكان... لا أريد... أريد البقاء وحدي]

ستكون عنيدة في هذا الوقت... فكنتُ حزيناً من أجلها...

قلتُ لها بكل صدق: [قلبي ينادي ويشجعني على رضاكِ... لما لا تفهمين أن الروح والجسد لا يريدان أن يريان دمعاتكِ؟!]

أحمر وجهها بالقرمزي، ولم تنطق بشي...

قلتُ لها: [هيا لنذهب إلى البيت... فالجميع في الانتظار...]

أخذتُ بيدها... وعدنا نحن سعداء...

لقد كان أخوها صادق النية وشديد الأخلاص بأصدقاءه... لم أتوقع يوماً أن يكون بيننا علاقة أخوية قوية كهذه... أنقذني أنا وشقيقتي من الضياع في الشوارع... لا يمكننا أن ننكر أو ننسى أبداً دوره في حياتنا...

لقد كنا أنا ونورة نغني أغنية الحياة... حتى وصولنا إلى البقية... ولم تختفي الابتسامة من على شفاهنا منذ ذلك الحين...

><><><><><><><><><><><><

النهاية...

الخاتمة:-

كان لا بد لي من تأليف هذه القصة يا أصدقائي... رغم أني كنتُ متردداً لنشرها...

اتمنى ان تعجبكم... وترقبوني بالمذكرة الثاني من هذه القصة التي ستكون بعنوان...

مذكرات بدر: أزمة التوحد

مدونتي...

/http://dante-uae.blogspot.com

جميع قصصي موجودة في...

http://www.4shared.com/dir/14410692/2523f96d/sharing.html

ايميلي للمراسلة...

Dante_uae@windowslive.com

تاريخ...

٢٠٠٩\٨\١٠

تم بحمد الله